

د. هالة أحمد زكي

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
صدر عن دار المعارف

حكايات علي بابا مصر



دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

هذا كتاب يضم لقطات تاريخية وجغرافية
طريفة من أحداث تاريخ مصر الدينى والسياسى
والثقافى..وقد رجعت الكاتبة إلى عدد من المراجع
الموثوقة لتستمد منها مادتها ... وتعيد صياغتها
من جديد فى صورة حكايات وحواديت يستمتع
بها الكبار والصغار... تتميز بالدقة والرقّة والعذوبة
والسرد الممتع الذى يجعل القارئ يعيش مراحل
هذا التاريخ وكأنه مشارك فيها..راصد لها.
ونلاحظ أن الكاتبة تهدف من كتابها هذا إلى
تذكير القارئ المعاصر بتاريخه وشخصيات وآثار
مصر التى كونت هذه الشخصية المصرية العريقة
التي صمدت فى وجه الرياح العاتية على مر
التاريخ.



٤٠٨٤٨١/٠١



أقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٧٧٨]

دقائق على باب مصر



رئيس مجلس الإدارة

د. حسن أبو طالب

سلسلة اقرأ

صدر العدد

الأول سنة ١٩٤٣

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب
والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

زكى، هالة احمد

دقات على باب مصر / هالة احمد زكى - ط١ -
القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٤.

٢٢٨ ص ١٧,٥ سم - (سلسلة اقرأ، ٧٧٨)

تدمك : ١ - ٨٠١٧ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - مصر - تاريخ

٢ - مصر الاحوال السياسية

٣ - مصر الاحوال الثقافية

(أ) العنوان

ديوى ٩٦٢

رقم الإيداع ٢٠١٤ / ٢١٠٢٦ ١/٢٠١٤/٢٨

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة
كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

د. هالة أحمد زكي

دقائق على باب مصر

الطبعة الأولى

٢٠١٤م



اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها،
لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر
الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون
إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا،
وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من
الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى
وأخصب من الحياة العقلية التي نعيشها.
طه حسين



دار المعارف

أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

الإهداء

إلى أبى وأمى... إليهما وقد دخلا مصر من باب من جاءوا لينتموا إلى
عشق هذه الأرض المصرية المباركة.

إلى كل من ساعدنى وكان بمثابة الكلمة الطيبة صاحبة الأصل الثابت
خلال مشوار حياتى إليهم جميعا إلى أساتذتى فى كل مراحل التعليم
والتعلم.. إلى نور. سعاد فصيح. سميرة جورج. قمر مبارك. إبراهيم
همام. بثينة. مرسى سعد الدين. لىلى جلال. فوزية الصدر. سارة
رشوان.

إلى أساتذتى فى الصحافة والثقافة المصرية: د. عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ). أحمد نافع. عبد الوهاب مطاوع. صلاح حافظ. فاروق
جويذة. د/ إسماعيل سراج الدين. وجدى رياض. محمد عيسى
الشرقاوى. كامل زهيرى.

وشكر خاص للدكتور أكمل الدين إحسان على مساندته لهذه الرؤية
المتواضعة.

وأخيرا... إلى الغد الذى لا بد وأن يأتى... إلى هلا وجنى.

كلمة

كثيرا ما ينظر المؤرخون إلى الأماكن والجمادات باعتبارها مرآيا للناس وبوتقة الماضي بامتياز. وقد عرفت في الكاتبة الصحفية المجتهدة، الدكتورة هالة أحمد زكى، شغفها بالتاريخ والثقافة الإسلامية الذى يدفعها إلى سبر أغوار قرون من الزمان، والتحليق فى فضاءات رحبة مضت فى قصص وبطولات وشجن.

وما من شك أن حب د. هالة لتاريخ بلادها، والحكايات الغابرة التى حاكتها الأيام بروية، قد انعكس عبقا فى كتاباتها، متسلحة بما لها من دراية وثقافة واسعة، ودراسة أكاديمية تصل الماضى بالحاضر، عبر جسر عشقها للتاريخ باطلاع متواصل وعميق على واقع الحال فى أكثر من جغرافيا، وقد استفادت من تجوالها كصحفية نشطة فى بقاع مختلفة من العالم الإسلامى، من عمق تضاريسه إلى تخومه البعيدة.. مثل بشكيرستان فى روسيا، ومدن قد تبدو مجاهل لبعض الصحفيين فى شينجيانج الايغور وقشغر وغيرها.

إن هالة أحمد زكى التى غرفت من كنوز الماضى تعرف أن فى اليوم شمسا، كانت قد أشرقت بالأمس.. وهى من تحمل باقتدار الراية من والدها الصحفى الكبير أحمد زكى عبد الحليم.

فى كتابها، تقدم لجمهور القراء صفحات تختزل أهم وقائع الزمان وأحداثه فى مصر، منذ أن خرجت من رحم الحياة إلى مشارف العصر الحديث.

وتحاول عبر هذا المدى الزمنى الطويل المكتظ بالتفاصيل، أن تسلط فى عجالة، إضاءات كاشفة على أحداث تاريخ يدفع بعضه ليفيض بفسيفساء متراصة من أحداث ومواضيع تحاول نبش وقائع صغيرة أخذت مجراها على أرض مصر، لأناس تركوا بصماتهم على عصرهم ومجتمعهم، فنها تحفى بهؤلاء قادة وعلماء أو شعراء من الذين تميزوا، لتدخلهم فى ذاكرة الزمن حتى لا يضيع ما أبدعوه وأنتجوه فى تضاعيف النسيان.

والممتع، أن الكتاب يسرد التاريخ بوقع القصة المحكية، فكانه حديث لا ينتهى فى مقهى تحلق فيه الرجال منصتين لحواديت الزير سالم وأبو زيد الهلالي، فيذكر قصص أناس وشخوص تقف بين أيدينا حتى اللحظة مثل جبل المقطم، الذى شهد سفحه آلاف الحكايات التى أنبأت عنها روضته التى ضمت قبورا تاريخية لأعلام الصحابة.

ولاشك أن هذه الإضاءات على هؤلاء الرجال والنساء، قد أتاحت للقارئ إطلاقات خاطفة، ذات نكهات مختلفة، لأناس عرف بعضهم معرفة عابرة، فأتاح له هذا الكتاب وقفة تأمل لهذه الشخصيات الفذة التى أسهمت فى صياغة تاريخ مصر وحياة شعبها، عبر تعاقب

الأزمنة، وبذلك أفاد المكتبة العربية بهذا النوع من الكتب التي تخرج
عن المألوف، والتي تفتح لنفسها مجالاً في ميدان الفكر والتاريخ إلى
شرائح واسعة من القراء.

الاستاذ الدكتور/ أكمل الدين أحسان أوغلو
أمين عام منظمة التعاون الاسلامى

أول السطر

أعرف إلى الآن لماذا اخترت أن أبحث عن هذه القصص وأن أذهب إلى ٦ ما هو أبعد من هذا فأكتبها تحت عنوان «دقات على باب مصر»؟
فمصر ككيان وكما يحلو للبعض أن يراه يبدو ثابتا ومرشحا للاستمرار، بدليل كل هذه النجاحات التي حققتها مصر برغم العديد من العقبات التي اعترضت طريقها على مر العصور.

فقد تجثم ظلمة حالكة وتهب رياح الاختبارات العاتية على مصر ويظن الجميع أنه لا فكاك من هذه المصاعب. ثم تشرق الشمس وتموت كل الغيوم في السماء.

فمن يعيش في الحاضر يتصور وينظرة محدودة أن المصريين الذين عاشوا بالأمس على هذه الأرض والذين شيّدوا حضارة بل مجموعة من الحضارات على مر العصور ليسوا بالطبع هم هؤلاء الذين يمشون في الشارع ويعانون من غلبة المشكلات اليومية التي تتعلق بالحياة ولقمة العيش. وقد يأنس من يفكر بهذا الأسلوب إلى اعتقاد خاص بأن هؤلاء المصريين الذين عاشوا في الماضي إنما ذهبوا مع أيامهم وأنه لا رجعة لمثل هذه الأيام على مر العصور.

وإن الذين صنعوا سبل التمدن المصري في القرون القريبة الماضية إنما هم أشخاص جاءوا إلى بر مصر واستقروا بها ولولاهم لما عرف المصريون التمدن.

اعتقاد غريب .. وهو من وجهة نظرى ليس سوى أقوال تصدر عمن
لا يؤمنون بقدرتهم على تسيير الحياة ولا يملكون بالقطع طموحات
واضحة ويرتاح إلى الركون إلى فكرة هى أبعد ما تكون عن الحقيقة.
فإذا قمنا بما يشبه المسألة الحضارية لوجدنا أن تاريخ مصر الطويل
وعلاقتها بالغريب وأبناء البلد هو ما جعل منها لوحة من الموازيك قلما
تتشكل فى مكان آخر.

ولهذا لا يمكن أن نقول إن المصريين هم من ولدوا فى بر مصر
المحروسة فقط ولكن المصريين الحقيقيين هم من ينتمون بحكم التركيبة
الحضارية لهذا البلد وهذه الشمس وهذا التاريخ.
وهم أيضا من يذوبون عشقا فى هذه الأرض ويبدأون تاريخهم
الشخصى على أبواب المحروسة مصر ويعيشون الحياة بنمط جديد
وعقيدة وسطية.

د. هالة أحمد زكى

أول الكلام

عندما كتب إدوارد وليام لين عن العادات والتقاليد المصرية مؤرخا الحياة في مصر في الفترة ما بين عامي ١٨٣٣م، ١٨٣٥م كانت هناك العديد من الجاليات التي تسكن مصر منها عشرة آلاف عثماني وتركي وخمسة آلاف من الشوام وخمسة آلاف من اليونانيين وألفان من الأرمن غير سبعين ألفا من العرب والزنوج والمماليك والجواري والفرنجة. (١)

وهو ما يعني باختصار أن مصر في زمن بدايات الأسرة العلوية كانت تضم الكثير من الجنسيات وأن هؤلاء جميعا عاشوا على أرض مصر ينعمون بتفاصيل الحياة المصرية دون أى تفرقة.

فالإحصاء يعلن بصراحة وكما هو واضح أن هؤلاء عاشوا بالفعل في بر مصر إلا إنه في النهاية مجرد إحصاء يتحدث بلغة الأرقام، وهي لغة قد يغيب عنها أن تعرفنا ظروف هذا اللقاء على الأراضي المصرية أو أن تحكى عن الزمن الذي جاء فيه هؤلاء وأن تعلن لنا بصراحة عما إذا كانوا بالفعل قد وجدوا في مصر مرامهم.

وفي الوقت نفسه قد يغيب عنه وعنا أن نجد إجابة وافية بسؤال آخر: لماذا مصر بالذات؟ وأين ذهب أبناء العثمانيين والأتراك والشوام والأرمن واليونانيين والزنوج بعد هذا العمر؟!

فهل دخل هؤلاء فى زمن معين ولحاجة معينة وتركوا بلادنا بعد انتهاء مهمتهم؟ أم إنهم مازالوا يشكلون جاليات تعيش بشكل مستقل ويتعاملون مع المصريين على أنهم مجرد جيران لهم؟ وإذا لم تكن الإجابة بنعم.. فالسؤال سيكون كالاتى: هل ذابت هذه الجاليات فى الأراضى المصرية وتاهت ملامحهم المميزة وسط الملامح المصرية وأصبحوا بالفعل مصريين بعد استقرار جيل أو جيلين على أرض البلاد؟

مجرد أسئلة تحتاج منا إلى إجابات واضحة. وإن كانت أسئلة وكما أعتقد بلا إجابات ظاهرة. ولهذا سأحاول أن أقرأ معكم بعض الحوادث المصرية التى تحكى لنا عن أناس جاءوا إلى أرض مصر داخلين من باب من يقصدها واستقبلهم المصريون ليعيشوا بين ظهرانيهم وليتبادلوا معهم تحية الصباح والمساء ورغيف الخبز ومشكلات الحياة اليومية وقصص إنجاب ونجاح الأبناء والأحفاد. فالمصريون هم من فتحوا لهم الأبواب.. والمصريون أيضا هم من رضوا بوجودهم.

فالواقع إن مصر لم تغلق الباب أمام الأعراب الذين لم يأتوا محتلين بل راغبين فى العيش على أرضها ولم تفرض عليهم قانونا يكسر القلم فى أيديهم أو تفرض عليهم فنونا أو عادات بعينها بل على العكس فتحت لهم أبوابها وتركتهم يعملون ويتحركون ويعيشون ولم تفرق بينهم وبين غيرهم من المصريين. فكانت لهم رؤيتهم التى أثرت الفنون المصرية. وقد فعلوا كل هذه ليقول المصريون لهم فى النهاية.. خطوة عزيزة.

أبناء قولة يحكمون

أخرى... نقرأ إحصائية من كتاب «الأتراك في مصر» صدرت في **مرة** السنوات الأولى من حكم محمد علي باشا في فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر تحدد عدد سكان مصر بمليونين وستمئة مصرى مسلم ومائة وخمسين ألف مصرى مسيحي واثنى عشر ألف تركى عثمانى وخمسة آلاف مملوك. (٢)

ويعتقد كثيرون من أصحاب الأصول التركية أن قانون المواطنة الأول الذى صدر عام ١٨٩٩م وجرى تعديله بعدها بعام قد أقر مصريتهم حيث إن المادة الأولى منه جعلتهم يتمتعون بحق المواطنة التى يتمتع بها كل من توطن القطر المصرى قبل أول يناير ١٨٤٨م وحافظ على محل إقامته وكذلك الأبناء وأفراد الرعايا العثمانية المولودون فى مصر والمتوطنون فى مصر منذ أكثر من خمسة عشر عاما.

أما الأتراك أنفسهم فلا يمكن رصد تاريخ معين لوجودهم فى البلاد وإن كانوا يعترفون بأن أول من جاء إلى مصر من أصول تركية وصاحب مكانة متميزة هو أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية، حتى إذا جاء المماليك أصبح لوجود الثقافة التركية بصمة كبيرة من خلال المماليك البحرية واستمر الحال فى ظل الدولة العثمانية التى شهدت أكبر تدفق للأتراك فى العهد العثمانى.

ومع تولي محمد على باشا حكم مصر والذي كان في الأصل ضابطا في الجيش العثماني برتبة سرجشمة توطنت الثقافة التركية، حيث إن التحديث الذي أقره في بداية حكمه - كما جاء في كتاب الأتراك في مصر - قد تم طبقا للنموذج العثماني.

وأما عن الحياة العامة فقد كان للأتراك تأثيرهم في الجيش والطبقة الأرستقراطية والطعام والموسيقى. ولهذا اختار الأتراك العيش في المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية وبعض المدن المصرية وإن كانوا في الحالة الأخيرة لا يتعدى عددهم ما بين الاثنا عشر والعشرين شخصا بينما لم يسكن القرى فعليا سوى شخصين أو ثلاثة.

وفي النهاية يمكن أن نقول إن أرفع المناصب في الجيش قد شغلها الأتراك حيث سن محمد على باشا هذا السنة. فتشكلت الإدارة الحديثة مبدئيا من أفراد عائلته وأهل بلدته «قولة» ومنهم ابنه إبراهيم القائد الحربي صاحب الفتوحات الكبرى في الدولة المصرية الذي لا يشق له غبار وحفيده عباس ثم إبراهيم وأحمد نجلا أخته ومؤسسا أسرة يكن. ولهذا لا يمكن حصر الوجود التركي في مجموعة من السنوات أو المواقف. فمنذ تولي أحمد بن طولون أمر مصر وحتى نهاية الأسرة العلوية توجد مساحة كبيرة من الزمن وتطورات لا يمكن وضعها تحت لائحة قانون واحد.

فهؤلاء الأتراك لا ينتمون فقط إلى مراحل تاريخية وحقب مختلفة ولكنهم أيضا ينتمون إلى فئات متعددة من البيت التركي. فهناك الأتراك

السلاجقة والقبشاق والكرج والأرناؤوط الذين عاشوا في مصر في زمن المماليك. وهناك الألبان وطوائف أخرى من الترك استقروا في مصر في مرحلة لاحقة نسبياً.

إلا إنه تظل لمحمد على مكانة خاصة فهو ليس مجرد شخصية شهيرة تنتمي إلى هذه الطائفة أو الجالية في مصر ولكنه كان في أبسط تقدير مشروع دولة.

فلكى نفهم ببساطة ما فعله محمد على يمكن أن نقرأ ما كتبه جى فارجيت في كتابه «محمد على.. مؤسس مصر الحديثة» حيث أقام محمد على المدارس التى تخدم أهداف التنمية الاقتصادية والعسكرية مثل مدرسة المهندسخانة والطب والولادة والصيدلة والفنون والصناعات والزراعة والبيطرة.

وكان يلتحق بهذه المدارس تلاميذ الأزهر والكتاتيب فى البداية من الذين حصلوا على قسط معقول من التعليم ثم أصبحت المدارس عامة ومدنية الطابع. ولما تعددت المدارس واتسع نطاقها أنشأ محمد على داراً سميت ديوان المدارس كأول وزارة للتعليم.

وفى كتاب وصف مصر قدر عدد سكان مصر بـ ٢,٦ مليون نسمة عام ١٨٠٠م ولكن أندريه ريمون ذكر أن العدد الحقيقى تجاوز أربع ملايين نسمة ووصل إلى ٤,٧ مليون نسمة فى نهاية عهد محمد على أى بنسبة زيادة قدرها ٤ بالألف كل عام.

ويرجع ذلك إلى زيادة عدد الوفيات بسبب الحروب والأوبئة. فقد ظهرت الكوليرا عام ١٨٣١م واستمرت تعاود الظهور على فترات حتى منتصف القرن العشرين فى أعوام ١٨٤٧م، ١٨٤٨م، ١٨٦٥م، ١٨٨٣م و١٨٩٦م، ١٩٠٣م، ١٩٤٧م.

وحصد وباء الكوليرا الذى ظهر عام ١٨٣١م - ١٨٠ ألف شخص. أما وباء الطاعون الذى ظهر عام ١٨٣٥م فقد تسبب فى وفاة ٥٠٠ ألف نسمة ومع ذلك فكانت نسبة المواليد فى عهد محمد على مرتفعة. أما الوفيات فى الأطفال فكانت مرتفعة أيضا. (٣)

المهم أن محمد على وعائلته يمكن أن يحكوا عن طبيعة علاقة الأتراك بالمصريين. وإن كنا لا يمكننا رصد كل دقيقة وثانية حدثت فى بر مصر فى ذلك الزمن. فكل ما نستطيعه هو التقاط بعض القصص والحكايات التى تناقلها المصريون والتى كان بعضها فى صف هؤلاء الوافدين وبعضها الآخر ضد هذا التواجد الذى اعتبر فى عرف البعض شكلا من أشكال الاستعمار.



من الصاغة وخان الخليلي

يبدو أن مجئ الفاطميين إلى مصر مثل أفضل وقت للوجود الأرمني على الأراضي المصرية. فخلافًا لما حدث لآخرين في ظل هذا الحكم أعطى الفاطميون الأرمن وضعًا متميزًا حتى إنه اعتبر زمنهم الذهبي ويكفي ما كان من أمر الوزير الشهير بدر الدين الجمالي من تول للوزارة والقيام بالكثير من الإصلاحات وتشييد العديد من العماثر الإسلامية ومنها أسوار القاهرة.

وإن كان الجمالي لم يكن الحالة الفريدة في العصر الفاطمي فهناك من وصل إلى رجال السلطة من الأرمن. إلا أن أكبر ظهور لهم قد حدث في القرن السابع عشر عندما جاءوا إلى مصر كحرفيين في الصاغة بخان الخليلي وكتجار للأسلحة واستقروا في القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط.

وبالاقتراب من المشهد نجد أنهم مع الأيام أثبتوا قدرتهم على التفاوض الدبلوماسي في العصر العثماني وإن بدأ هذا التعامل حذرًا، إلا أن عصر محمد علي قد شهد هجرات أرمنية إلى مصر وخاصة بعد خروج الحملة الفرنسية.

ويقال إن محمد علي باشا قد عمل في صباه بتجارة تاجر أرمني كان يعامله معاملة الأب لابنه.

ولهذا مع تولى محمد على الحكم أصبح باستطاعة أسماء كبوغوص بك يوسفان الذى أصبح ناظرا للتجارة والأمور الإفرنجية الحق فى الظهور. وإن كان هذا الوضع لم يستمر كثيرا فى ولاية عباس الأول - الذى لم يتجاوب معهم كثيرا - والذى جاء خلفه سعيد باشا بانفراجة جديدة لهم. وبرغم هذا التذبذب بين القبول والرفض توافد هجرات قوية منذ أكثر من مائة وثلاثين عاما نتيجة للاضطرابات السياسية فى أرمينيا.

ويذكر الباحث محمد رفعت فى كتابه «الأرمن فى مصر» إن تعداد الأرمن الكاثوليك قد وصل عام ١٨٨٥م إلى ٢٢٨ أسرة منهم ٥٩ أسرة فى القاهرة و٢٦ أسرة فى الإسكندرية و٢٣ أسرة فى الأقاليم. وقد بلغ عدد الأرمن الكاثوليك فى القاهرة عام ١٨٩٦م إلى ٢٣٢ أسرة يعيشون فى حى شبرا والعباسية والفجالة ودرب الجنينة وبين الصورين وباب الشعرية ودرب المصطفى وشارع محمد على والموسكى والأزبكية وبولاق. (٤)

وقد نجحوا فى الدخول إلى الحياة المدنية فى القاهرة بالخدمات التى عرفتها الطبقة المتوسطة كما أنهم أيضا لم يكونوا ليعتركوا الريف المصرى دون مشاركتهم وإن كانت أقل بكثير من مشاركتهم القاهرية.

باختصار نجح الأرمن أن يكونوا أداة من أدوات تحديث المجتمعات
القاهرية. فالأرمن بالتأكيد كانوا مقدمة لنقلة الحداثة التي شهدتها
مصر المحروسة قبل وبعد حكم إسماعيل باشا.



أول وحدة عربية

جدا أن نرصد نقطة البداية لوجود الشوام في مصر. والشوام كلمة صعب كانت تطلق غالبا على السوريين واللبنانيين الذين عاشوا في بر مصر.

إلا أنه لا يمكن وبأى حال النظر إلى علاقة الشوام في مصر دون التوقف عند مرحلتين تاريخيتين مهمتين أولاها الحكم المصرى للشام والذي امتد لعشر سنوات بدءا من عام ١٨٣١م فى زمن محمد على وثانيهما إعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م.

فكما تقول د. لطيفة سالم فى كتابها المتميز «الحكم المصرى فى الشام»: إنه منذ عام ١٨١٠م ومحمد على باشا يصوب نظره إلى تلك المنطقة وكان ابنه القائد إبراهيم باشا يرغب فى احتواء الجيش العربى فى إطار موحد شامل فكما قال ابراهيم نفسه:

أنا لست تركيا فإنى جنث مصر ومنذ ذلك الحين مصرتنى شمسها
وغيرت من دمي وجعلته دما عربيا حتى إنه أقدم واتخذ لنفسه لقب
«سر عسكر بلاد العرب» ولم يوافقه عليه والده محمد على باشا.

ويعد إبراهيم باشا واحدا من أهم ركائز الأسرة العلوية، فلولا قدراته العسكرية المتميزة وكفاءته فى المعارك الحربية التى ثبت فيها
وحقق الكثير لأبيه لما أستطاع محمد على أن يحقق أحلامه التى تفوق
الخيال. (٥)

وأما المرحلة الثانية فهي الوحدة ما بين مصر وسوريا وهي الأحداث التي بدأت بمدى قومي كبير عام ١٩٥٨م وانتهت عام ١٩٦١م وكانت في الأغلب تحقيقا عمليا للحلم العربي القومي الذي لا يزال إلى الآن يراود المثقفين والمفكرين وإن كانت المحصلة النهائية في صف استبقائه في مرحلة الحلم الذي لا بد أن يتحقق في يوم من الأيام.

وبقراءة متأنية في أوراق المسرح والصحافة نجد الكثير من التأثيرات الشامية في حياة المصريين.

فهناك الكثير من المؤسسات الصحفية الكبرى التي بنيت على أكتاف مجموعة من محترفي المهنة من الشوام مثل سليم وبشارة تقلا اللذين أسسا مؤسسة الأهرام منذ أكثر من مائة وخمس وثلاثين عاما وجورجي زيدان صاحب البصمة الكبرى على مؤسسة دار الهلال الصحفية.

ومع دخول فن المسرح بثبات إلى أرض مصر جاء عدد من المسرحيين ومنهم سليم النقاش الذي أراد استغلال نجاح أوبرا عايدة فترجمها وأعطاه إحياء العصر لتبدو مسرحية عربية ولينطلق بها من القاهرة ليحصد الشهرة والمال.

وكان نجاح النقاش هو الباب الذي دخل منه غيره من أبناء الشام مثل يوسف خياط وسليمان الكردوي وجورج أبيض الذي قدم مسرحية «جريح بيروت» التي كتبها حافظ إبراهيم وقدمت على خشبة المسرح لأول مرة في ١٩ مارس ١٩١٢م. وهو ما يعنى تعريب المسرح المصري.

وهو قصة أخرى تضاف لإنجازات الشوام الثقافية في مصر.

أبناء سلمان الفارسي في مصر

الإيرانيون في مصر حالة تستحق التوقف أمامها بالرصد يمثل والتحليل.

فعلى غير حال الجاليات الأجنبية التي تأتي إلى البلاد وتذوب مع مرور الوقت يعتبر الإيرانيون أنفسهم شأنا خاصا.

فمجيئ الفارسيين إلى مصر قد تم بشكل الصدمة الحضارية عندما غزا الفرس مصر وقضوا على فكرة الاستقلالية بها وكونوا أكبر غزو عسكري منظم بعد غزو الهكسوس.

فصحيح أن الآشوريين والليبيين وفصائل من المرتزقة الإغريق والرومان قد خطوا الرحال إلى مصر إلا أن الغزو الفارسي كان إيذانا بحالة استعمارية امتدت لزمان طويل.

فقد كانت مصر واحدة من أحلام كورش مؤسس الامبراطورية الفارسية لمد نفوذه على العالم، إلا أن هذا الحلم لم يكن ليتحقق على أرض الواقع بالصورة التي تمنها في حياته. فقام ابنه قمبيز بعد موته بغزو مصر ولكنه فوجئ بأنها كيان لا يمكن أن يقبل الانضواء تحت أي كيان آخر.

فمعطيات الحضارة المصرية الثابتة كانت تسمح لها بالاستمرار برغم وطأة الاحتلال وفرض النفوذ.

فلم يتغير شيء حتى بعد أن قام الفرس بغزو مصر واحتلالها مرتين، أولاهما كان على يد قمبيز واستمر لزمان ليس بطويل من وجهة الزمن الحضارية إذا ما قارناه باحتلال آخر مثل الاحتلال البطلمي لمصر.

وثانيهما عقب هزيمة الروم التي ذكرها القرآن الكريم في سورة الروم وهي سنوات ليست بالطويلة حيث لا تتعدى العقد من الزمن وربما أقل من هذا.

إلا أن الرؤية الفارسية لمصر لم تقتصر على هاتين الواقعتين الاستعمارييتين فهناك ذكرى جميلة يحتفظ بها الفرس في مصر توقف عندها العالم الجليل حسين مجيب المصرى والذي حكى عن قصة ربما لا يعرفها الكثير من المصريين وهي أن الصحابي الجليل سلمان الفارسي ابن مدينة أصفهان الإيرانية والذي كان أول رجل فارسي يدخل الاسلام، والذي شبهه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بلقمان الحكيم قد عاشت اثنتان من بناته في بر مصر المحروسة. (٦)

كما أن الكثير من الرحالة أمثال ناصر خسرو قد عاشوا لفترة في القاهرة وكتبوا عن معالمها وحضارتها الإسلامية.

أما قائمة العلماء المصريين من أصل فارسي فهي تشبه لائحة الشرف حيث إن كل الأسماء التي تضمها تختلط فيها الدماء الفارسية بالفطرة والوسطية المصرية أمثال الإمام الليث بن سعد والفخر الفارسي والأصفهاني وغيرهم.

ومما يذكر أيضا أن مصر كانت موطنًا آخر للصحافة الفارسية. ففي عام ١٣١٨هـ. كان في مصر ثلاث صحف تصدر باللغة الفارسية. كما أشار السفير الإيراني خسرو شاهي في جريدة القاهرة وهي : «حكمت» و«ثريا» و«بروروش» وكلها صحف أسبوعية.

وبعدها ظهرت صحيفة «جهره نما» بعد ثلاث سنوات من احتجاج «بروروش» كرابع صحيفة فارسية في مصر وكانت تصدر مرة كل عشرة أيام ثم جاءت صحيفة «كمال» إثر اضطرابات شعبية في مدينة تبريز وقد صدرت في القاهرة بترحيب من الصحيفتين «حكمت» و«جهره نما» والتي لم تصدر بعدها أي جريدة فارسية في مصر إلى يومنا هذا.

وان كانت هذه ليست القصة كلها فبين السطور توجد العديد من القصص التي لا نعرفها.

واحدة منها ذكرتها مجلة «مختارات إيرانية» حيث شهدت القاهرة الكثير من الجدل الديني والثقافي بين المصريين والإيرانيين. وأفضل مثال على هذا هي زيارة العلامة بهاء الدين العاملي لمصر ومباحثاته مع الشيخ البكري في الأزهر الشريف.

والشيخ بهاء الدين محمد بن العلامة عز الدين حسين العاملي المستشار الديني لشاه عباس أعظم ملوك الدولة الصفوية، وقد وصفته المصادر بأنه جامع العلوم العقلية والنقلية. وقد ولد في بعلبك عام ٩٥٣هـ. وقدم مع أبيه إلى إيران عام ٩٦٦هـ.

ودرس العلوم الدينية على يد والده ودرس العلوم العقلية على يد الشيخ عبد الله مدرس اليزدى، والطب والقانون على يد عماد الدين محمود الطبيب، واستقر به المقام فى أصفهان عاصمة الدولة وخلال ذلك ألف كتابه الجامع فى الفقه الجعفرى وقدمه باسم الشاه. (٧)

هذا الرجل زار مصر عام ١٦١٦م أى فى بدايات القرن السابع عشر ليؤلف كتابين يعتبران من أشهر كتبه وهما «الكشكول» و«المخلاة» اللذان طبعا بمطبعة بولاق مرتين.

ويؤكد المقال أن ما طبع لهذا العالم فى مصر أضعاف ما طبع له فى أى مكان آخر. وقد دخل مصر فى الأصل متنكرا فى زى درويش حتى لا يقصيه السلطان العثمانى الذى لم يكن على وفاق مع الشاه الصفوى. ومع هذا عرفه الشيخ البكرى الذى قال له : شمت منك رائحة الفضل فكتب الشيخ بهاء شعرا فى مصر:

يا مصر سقيا لك من جنة	قطوفها يانعة دانية
ترابها كالتبر فى لطفه	وماؤها كالفضة الصافية
وقد أخجل المسك نسيم لها	وزهرها قد أرخص الغالية
دقيقة أصناف أوصافها	ومالها فى حسنها ثانية
منذ أنخت الركب فى أرضها	أنسيت أصحابى وأحبابيه
فيما حماها الله من روضة	بهجتها كافية شافية
بها شفاء القلب أطيارها	بنعمة القانون كالدارية. (٨)

والحقيقة أن هذه الأبيات تعتبر تأكيدا لتاريخ لم يتوقف عنده كثير من الباحثين، إذ إن الإيرانيين رغم تفرد ثقافتهم وترددهم على مصر وتسجيل مشاهداتهم من خلال التجارب الشخصية يمكن ألا يمثلوا تيارا له ثقل الوجود التركي أو الشامي أو حتى الأرمني، إلا أنه يجدر بنا التوقف عند هذه الحكايات الشخصية التي يمكن أن تحكى لنا عن جوانب أخرى من الحياة المصرية وخاصة فيما يتعلق بتاريخ استقرار بعض الأسر الإيرانية في مصر على مر العصور.

فهناك موجة من التوطن في مصر حدثت في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وهو ما أوجد جالية إيرانية كبيرة جاءت في نهاية حكم الأسرة القاجارية وبدايات حكم الأسرة البهلوية والثورة البيضاء أثناء حكم الشاه رضا بهلوى.

وما زالت بعض الأسر المصرية صاحبة الأصول الإيرانية تحمل القاب رشتى وخراسانى وأصفهانى وشيرازى.. ولا يزال المصريون يذكرون أن آخر سنوات الأسرة المالكة في مصر قد شهدت مصاهرة بين الأسرتين المالكتين في مصر وإيران، حين تزوج شاه إيران الأخير محمد رضا بهلوى بالأميرة فوزية أخت الملك فاروق التي وصفها الإيرانيون بأنها تتفوق على أكثر الإيرانيات حضارة ومدنية.

فهذا الزواج الذى روجت له وسائل الإعلام كثيرا وقتها لم يكن إلا إعلانا عن التواصل والانفتاح بين المجتمعين المصرى والإيرانى.

يبدو بالفعل أن ذلك الزمن كان عصرا ذهبيا للتواصل. فكما يذكر مشروع ذاكرة مصر المعاصرة إنه في الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٩٢٨م عقدت حكومة محمد محمود باشا الأولى معاهدة صداقة بين مصر وإيران تقضى بالمساواة التامة في المعاملة بين رعايا الدولتين وتمتعهم ومصالحهم بالحماية.

وقد زال بهذه المعاهدة كل ما يتمتع به الإيرانيون في مصر من امتيازات خاصة وكانت خطوة في سبيل إلغاء الامتيازات. (٩) وهكذا لا يمكن النظر إلى الإيرانيين على أنهم برغم رغبتهم في التفرد كانوا عنصرًا دخيلاً على الحياة المصرية. وإن كانت حسابات السياسة تفرض تيمة خاصة بين التباعد والتقارب.

فعندما كانت مصر في الستينيات تسعى إلى تأكيد مبادئ الثورة، كانت إيران لها علاقتها الخاصة بالولايات المتحدة وإسرائيل في ظل حكم الشاه، وهو ما جعل الكثيرون يعتبرونها شرطى الخليج الذى ياتمر بالأوامر الغربية وهو ما أوجد حساسيات في التقارب معها أثناء حكم عبد الناصر.

إلا أن الأمر قد تغير تماما أثناء حكم السادات الذى كانت تربطه علاقات صداقة جيدة بالشاه تقوم على النظر فى الأمور السياسية والعلاقات الدولية من منظور مقارب. وبعدها اختلفت الرؤى بين البلدين مرة أخرى مع إعلان معاهدة كامب ديفيد وانتصار الثورة الإسلامية فى إيران فتغيرت دفة التقارب إلى ابتعاد معلن مرة أخرى.

وهكذا. يمكن أن ننهى بعض ملاحظتنا عن الجاليات الأجنبية التي سكنت مصر وإن كنا فى النهاية لابد أن نذكر ولو بشكل عابر الوجودين اليونانى والإيطالى فى بر مصر.

فهؤلاء الأوربيون مثلوا عطاء خاصا لمنطقة البحر المتوسط. فالبحر واحد والطقس واحد والنظرة للحياة واحدة.

ولهذا لم يجد اليونانيون والإيطاليون والأروام مشكلة فى الانتقال للعيش فى الضفة الجنوبية للبحر وخاصة فى المدن الساحلية المصرية. وقد كان تشجيع العديد من حكام الأسرة العلوية لوجودهم فى الأراضى المصرية بالإضافة إلى التقلبات والنكبات السياسية والاقتصادية التى شهدتها أوربا فى القرون الثلاثة الأخيرة أكبر حافز لهم للاستقرار على أرض مصر. وقد اختصوا أنفسهم كما هو الحال بالنسبة للأرمن ببعض المهن المدنية فأقاموا المقاهى ومحال الملابس وأضافوا إلى صناعة السينما المصرية.

وقد استوعب أهل اليونان درس عصر الإسكندرية مبكرا فعاشوا فى مصر فى كل العصور. وهذا أكثر ما يميزهم عن الأرمن الذين جاءوا بنفس الأفكار فيما بعد ليتمكنوا من الدخول إلى المجتمع المصرى.

أما الإيطاليون فقد كانت لهم هم الآخرون إضافتهم فكما يؤكد د/ يونان لبيب رزق فى ديوان الحياة المعاصرة أن الإذاعة اللاسلكية فى مصر أنشأها إيطالى كمحطة صغيرة للتليفون اللاسلكى فى ميدان سليمان باشا قرب جروبى.

ويعود هذا بالطبع إلى ما كان يتمتع به إيطاليون من وجود قوى
فى مصر، حتى إنهم كانوا يشكلون أكبر جالية أجنبية أوربية بعد
اليونانيين فى مصر.

وهكذا تجتمع لدينا أجزاء الصورة التى يمكن أن نرى من خلالها
وجوها لأشهر الجاليات الأجنبية التى كانت تسكن بر مصر.. إلا أن
الصورة لا يمكن أن تقص علينا الحكاية التى كانت غالباً ما تنتهى إلى
حكاية أخرى.

والغريب أن كل أبطالها لم يكونوا مصريين من حال الأصل.. إلا
أن مصر قد غيرت من مسار حياتهم. فهى ليست مجرد علامة فارقة
غيرت مجرى الأحداث ولكنها أصل كل حكاياتهم. فلو كانوا عاشوا
فى أى مكان آخر لاختلف التاريخ وتغيرت الكثير من السياسات التى
شهدها العالم. ولو كانوا بعيدين عن أهلها لما اجتمعت لدينا كل هذه
التفاصيل الجميلة التى ينبغى أن نقرأها ونتوقف عندها لكى نرى
الصورة البهية لمصر التى ننساها فى لهائنا وراء لقمة العيش... فمن
المفيد أن نقرأ هذه القصص والحكايات... التى ربما حدثت فى نفس
شارع منزلك فى بر مصر المحروسة.



أيام المسك المصرى

فى البداية.. نتوقف معكم عند هذه القصص التى حدثت فى أزمنة مختلفة فى بر مصر.

والقصص تشبه قصص خيال الظل الذى كانت له مكانة كبيرة فى مصر فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى والذى لم يتنازل عن عرشه فى أرياف مصر.

وهو الزمن الذى أطلق عليه زمن صندوق الدنيا الذى ينسب للرواة أصحاب السير الشعبية فى المقاهى.

فمهما نقل عن زمن العرائس والحكايات التى كانت تروى فى المقاهى وسط أدخنة الشاى والقهوة والنجيلة من أنها ماض لا يعود... فهى قصص لا تفقد بريقها، لأنها وقعت وكما نقول فى أيام التبات والنبات.

بأمر الملكة صفية

بعد الصلاة على النبی العدنان... نحكى عن تصاریف القدر والزمان،
فهذه حكايات وكأنها قصص صندوق الدنيا فلا تحدث إلا في
الخيال. إلا إنها وكما يؤكد راو في مقهى شعبى وقعت في مصر
وتناقلتها الأجيال.

فكما قالت له أمه صهباء فى إحدى ليالى الشتاء إنه ما من أحد جاء
إلى مصر وكتب عليه الإياب إلا وينظرة أخيرة على البلاد تعيش معه إلى
الممات يتذكر هذه الأيام ويصفها بأيام التبات والنبات.

وتبدأ قصتى بأمر الملكة والسلطانة مع صفية... وعفوا فالبداية
تلزمن أن نترك لقب الملكة بعيدا حتى نتعرف على هذه المرأة الجميلة
ابنة فينسيا الإيطالية وأسرة بافو النبيلة.

فيحكى فى سالف العصر والأوان أن الشعور الذهبية والعيون
الزرقاء والثقة بالنفس كانت من أهم ملامحها وكيف لا تكون وهى ابنة
حاكم كرفو الذى يدين له الناس بالولاء.

وقد ظن الناس فى الشوارع فى هذا الزمان أنها لابد أن تلتقى يوما
بأمير أو نبيل كأبطال الحكايات إلا أن القدر أعد لها قصة بعيدة عن كل
هذه الظنون والتوقعات.

فيحدث أن تخرج النبيلة يوما مع مجموعة من النساء ليركبن البحر وتداعبهن الآمال في رحلة يفرض فيها هواء البحر انتعاشة في الصدور وسمرة في الوجنات إلا إنه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. فما تكاد الجميلة تركب البحر حتى تتعرض السفينة للخطف ويسرقها القراصنة لينتهي بها الحال إلى اسطنبول حاضرة المسلمين الغربية. وتجد النبيلة نفسها وكما حكى له أمه بين يوم وليلة أسيرة بعد أن كانت أميرة وخادمة بعد أن كانت آمرة وسبحان مغير الأحوال سبحانه الحي الذي لا يموت.

فماذا تفعل وقد تغيرت البيوت والأبواب وذهب الأهل والأحباب فلا بد من بداية جديدة وإلا لن تستمر الحياة التي أعطتها الشباب والجمال فالحياة تفرض نفسها مع كل نبضة قلب وتداول الأيام بين فرح وكرب، ويجتمع القراصنة على قرار وهو أن الجميلة لا بد أن تباع للسلطان مراد ملك البلاد.

ويحدث ما أرادوا وتدخل النبيلة القصر بعد أن يصبح اسمها صفية. ولتصبح بالفعل صفية الملك وحبيبته وزوجته بعد أن تصالحت مع نفسها. فبحسبة بسيطة ووقفة مع الذات وجدت صفية أن البحر الذي كانت تراه في بلادها هونفس البحر والسماء هي نفسها ومراد أفضل من أي زوج آخر. فتصبح وكأنها واحدة من الترك العثمانيين، وتعيش نفس حياتهم خاصة بعد أن تنجب «محمد» الذي أصبح فيما بعد معروفا في التاريخ باسم السلطان الغازي محمد خان.

أما حكاية صفية فى مصر فتبدو أكثر غرابة فهى ترشحها لأن تكون واحدة من أهل الخير، ولهذا أوقفت أراضى وعقارات على مسجد بمصر. وقد ساعدها فى مهمتها عثمان أغا مملوك الملكة الذى أخذ الأمر بما يستحق من جدية ولكنه ما لبث أن وافقه المنية فترك الأمر ويذهب.

فتقرر صفية استرداد أشياءها وتطالب بعودة الربعمائة فدان زاوية تيم جهة منوف بعد أن فوجئت بأن هذا الوقف يمكن أن يستغل لصالح آخرين.

فعثمان فى الأصل مملوك لها ولا يحق لأهله الاستيلاء على هذا الوقف على أنه ميراث وخاصة داود أغا الذى أنكر الأمر كله.

ولهذا تلجأ صفية إلى القضاء وأصحاب السلطان الذى ينصفها فيعود المسجد مرة أخرى إلى صاحبه.

وتطلب صفية أن يستكمل المسجد الذى يحمل اسمها والذى أقيم فى مصر المحروسة وكان الجامع الثالث فى مصر الذى يحمل الملامح العثمانية وتوجد به الكثير من السرايب التى تبدو ملمحا متكررا فى الكثير من الآثار وإن كنا نجهل حكمة وجودها.

وقبل أن تأخذنا بقية التفاصيل نتساءل معا: فحتى الآن تبدو كتب التاريخ حائرة أمام أيام الأتراك العثمانيين فى مصر، فهل نجحوا فى بر مصر وفى التعامل مع المصريين كحكام يحملون راية العدل والسلام أم أنهم كانوا عبثا وتكرارا لصورة الغازى الذى يأخذ أكثر مما يعطى؟.

فبعد هزيمة المماليك الذين حار فيهم التاريخ وإن كان أنصفهم حين وصفهم بأنهم أفضل البنائين وأصحاب أعلى المساجد وأكبرها في بر مصر وبعد دخول السلطان سليم الأول عاصمة المعز تغيير كل شىء حول المصريين. وجاءت أيام عليهم لم يعرفوها من قبل. فهؤلاء الوافدون الجدد قد وفدوا ومعهم بعض الأفكار التى تقبل المصريون بعضها ورفضوا بعضها.

فهناك أسلوب جديد فى إدارة البلاد ونمط إدارى جديد، وإن كان المهم بالنسبة لنا وضمن تفاصيل هذه الحكاية هو فن المعمار المصرى الأصيل الذى شهد بعض التغيير عند قدوم العثمانيين فعرفت القاهرة القناب الضخمة والتفاصيل البسيطة فى الشبابيك والواجهات والمداخل المعلقة التى وصفت بأنها بلغت ذروتها فى العصر العثمانى.

ويقال وحسب رؤية كتب التراث إن عدد درجات كل سلم من السلالم المؤدية للمداخل الثلاثة بمسجد الملكة صفية قد بلغت تسع عشرة درجة تبدأ من أسفل باتساع عظيم وتأخذ فى الصغر عند المدخل.

أما المئذنة فهى عثمانية بسيط يعلوها الهلال ويكسوها الرصاص. وكما يوجد للسلم تسع عشرة درجة يوجد للمسجد تسع عشرة قبة صغيرة لا تنفى وجود القبة الأم.

فمسجد الملكة صفية فى الصف الأول بين المباني العثمانية وإن كان قد سبقه جامعان عثمانيان آخران وهما سليمان باشا بالقلعة وسان باشا ببولااق الذى يعتبر صورة مقاربة من مسجد أحمد باشا الذى قام بتصميمه أيضا المعمارى الشهير سنان باشا.

أما العمارة الداخلية فهي عبارة عن صحن أوسط شبه مربع مكشوف تحيط به أربعة أروقة، وهناك خمس وعشرون نافذة من الجص المشق بالزجاج الملون واستخدام آخر لبلاطات من القيشاني المزين بأزهار عثمانية الطراز، ويقال إن هناك بوابة تواجه المدخل الشمالى للمسجد فى نفس الموقع بسكة الملكة صفية المتفرعة من شارع محمد على بالدواودية بنيت فى نفس التاريخ من بدايات القرن السابع عشر وهو يحدد بعام ١٠١٩هـ.

أما اللوحة التذكارية الثمينة على الباب الأوسط للمسجد والتي استكملت بعد أن عادت إلى صفية ملكية المسجد والوقف.. فقد كتب عليها إنشاء هذا الجامع المبارك المعمور بذكر الله تعالى صاحبة الخيرات الدرة الشريفة والدة المرحوم مولانا السلطان محمد خان طاب مثواه على يد فخر الخواص المقربين مولانا إسماعيل أغا الناظر الشرعى على الوقف المذكور.

وهو ما يعنى أن المسجد قد بنى بعد وفاة زوجها وابنها السلطان وبأمر الملكة صفية التى حددت للمسجد رواتب الموظفين والقراء واعتبرته وقفا خيريا.

ففى النهاية لا يبقى للإنسان إلا ابن يدعو له أو عمل ينتفع به أو صدقة جارية كما فعلت صفية التى أرادت بعد هذا كله أن تبنى ضريحا ملحقا بالمسجد لتدفن به، وإن كانت هناك الكثير من الأقلام التى لم تقف فى صفها اعتبرتها هى من تحايلت للحصول على هذا المسجد.

ولكنها فى النهاية قصة تناقلتها الأجيال وتحتمل وجهتى النظر فى أن تكون صفة من فرسان الخير أو أن تكون ممن يحصلون على أشياء تخص غيرهم.

فالمهم والسؤال هو لماذا بنت صفة هذا البناء؟ ولماذا نشبت هذه المعركة على أرض المحروسة لاستخلاص هذا المسجد ووقفه للخير؟ فلا أحد يعلم لماذا أحببت صفة مصر بالذات، ولا كيف انتهت الحكاية؟. فربما لأنها مصر التى اختصت نساء أخريات بمكانة فى تاريخ الإسلام ومنهن شجر الدر أول سلطنة مسلمة فى مصر وخوند بركة أم السلطان شعبان التى عاشت هى الأخرى فى العصر المملوكى فكانت أكثر النساء المؤمنات بركة وبراً بشعبها وابنة الخليفة الحاكم بأمر الله الذى توقف التاريخ طويلاً أمام أبيها بالسلب والإيجاب فى حين عرفت هى بالعطاء الذى يختلط بالمسك. فلا يكاد يمر عام على مصر وإلا يخرج من بين أهلها ممن يعيشون على أرضها من يعطى كما تعطى الأرض المصرية المباركة.

المهم أن صفة قصة تتكرر فى كل زمن. ولكن الغريب فى حكايتها أنها اختارت مصر التى لم تولد بها ولم تشهد صعودها إلى العرش العثمانى والغريب أيضاً أنها لم تختبرها فى زمن قوة الزوج والابن السلاطين. بل دافعت عن قضيتها إلى حد اللجوء إلى القضاء للتحقق من أمر ملكية هذا الوقف وهذا المسجد.. فما الذى يجعلها تتحمل كل هذه المشقة وبالذات هنا فى مصر؟ وهل صفة هى القصة الوحيدة التى لدينا؟ لا أعتقد فسوف نقص القصة بعد القصة.. والمهم أنها قصص مصرية وأنها حدثت بالفعل.. فماذا بعد؟

اعطِ الصباح فرصة

يقول الراوى: وأما صاحبة القصة الثانية فقد كانت هى الأخرى أميرة، وكيف لا تكون والبطلات فى كل زمان ومكان لابد وأن يكن جميلات ورقيقات وأميرات. وكان الحياة قد خلقت لهن وحدهن إلا أن حكاية هذه الأميرة لم تكن كغيرها من بنات الأسر المالكة ولا حتى بطلات القصص الخيالية.

فلم تكن تحب أن تقف كثيرا أمام المرأة التى كانت تعشقها وتعشق ملامحها النبيلة ولا أن تعدد ملابسها وتبحث عن الملك والسلطان. والحقيقة أننا لو تركنا الباب مفتوحا لكلمة لم تكن فلسوف نكررها كثيرا. فما أشد بهاء الأنثى التى تكره التصنع وليالى القصور وأضواء الشموع على الموائد الفخيمة وأضواء الصالونات الملكية التى لم تكن لتعكس سوى صور وجوه وكأنها تماثيل صامئة.

فالأميرة عين الحياة.. وهذا اسمها لم تكن تعشق الليل وكانت دائما تقف فى صف النهار والصباح الباكر.

ربما لأن كل الأحداث الجميلة التى حدثت فى القصص الخيالية والتى وقعت لها فى حياتها تأتى وكأنها الفجر. أما الاختبارات القاسية وفقد الأحباب وأعز الناس فلم يكن ليفاجئها إلا تحت وطأة ظلام الليل.

حقا كانت الأميرة عين الحياة فى منطقها هذا تبدو امرأة غريبة.
أما حكايتها التى كان يتناقلها الناس فى بر المحروسة جيلا بعد جيل
فكانت لا تقل غرابة.

ويتلفت الراوى حوله وقد تهيأ للكلام ولأن لكل كلام بداية؛ فقد
كانت كلمة البداية عن عين الحياة تصفها بأنها درة زمانها، حين
كانت كل الأنظار ترقبها وتتطلع إلى حسننها وسموها. فهى ابنة أحمد
رفعت باشا المرشح لعرش مصر بعد الوالى محمد سعيد.

إلا أن الحياة وكما حكى لنا الجدات لها حكمة تقال فى كل
قصة نسمعها ونحن بين اليقظة والنوم، فهى لا تعطى لأحد
ما يحب وإلا لما أصبحت الحياة حياة. ولما عشنا فى هذه الدنيا التى
تقابلنا بأسوأ المفاجآت.

فى ليلة مظلمة كانت عين الحياة فى غرفتها وحيدة حينما سمعت
صوت بكاء مكتوم بين غرف القصر ما لبث أن أعلن عن نفسه فى صراخ
متصل بعد أن أشيع خبر مصرع والدها فى طريق سفره.

فهكذا فى لحظة يذهب كل شىء ولا يصبح الملك ملكا ويضيع
السلطان. فإذا كان من حولها فى القصر قد فقدوا خطوات لأقدامهم على
طريق المستقبل البسام، فالمأساة هى فقدتها للأب لا الملك ولا السلطان.
ولتطاربها الذكرى الثقيلة والدمع الذى تذرفه فلا يشفع لها عند قلبها
ليحط بعض ما يثقله من ألم.

فقد انتهت الدنيا واغلقت الأبواب ولم يعد هناك إلا النافذة وحتى لا يتعجب أحد. فاللجوء إلى النافذة ليس قرارا بالانسحاب من الحياة فكل ما كان يحدث أن عين الحياة كانت تنتظر الصباح لتعطيه فرصة فى أن يتسلل ضوءه لغرفتها ومعه صوت فتيات يغنين وهن ذاهبات فى طريقهن إلى القرعة.

فى البداية لم تكن الأصوات واضحة فكان الحديث كله غناء إلا أن متابعة عين الحياة لانتظار الصباح قد أعطاها الفرصة فى أن تستمع وأن تقترب أكثر من صوت المصريات أو بنات العرب كما كان يسميهم مشرفو القصر. فما بدأت تستمع إليه حتى تحول شيئا فشيئا إلى عادة من الانتظار اليومى للفلاحين والفلاحات اللائى كانت أحاديثهن تحكى ببساطة عما يجرى فى مصر. وبمرور الأيام أصبحت عين الحياة ترى بأذنيها ما يحدث فى القرية الصغيرة الملاصقة للقصر وتسمع شكوى الفلاحين وأنين الناس وتشعر بقسوة الرياح فى ليالى الشتاء.

وما أكثر الأيام التى كانت تتحفز فيها لتجنب النافذة إلا إنها لم تستطع ربما لأنها تعلم أن هناك من يحنو على الأرض من الفلاحين ويغرس أقدامه فى طينها حتى يثمر وتبتهج مصر بحلو ثمرها، ويبتسم نوار الخير فى حقول القطن.

فكثيرة هى أحاديث الفلاحين وكأنهم أناس من عالم آخر يعيش منهم من يعيش ويموت منهم من يموت. إلا أن صوت الفتيات عند حافة القرعة فى الفجر وصوت الناس عند الغروب لا ينقطع.

وأما الليالى فقد جاءت فى حياتها وكما توقعت. فلم يكن كثير منها يسر الفؤاد. فهذه ليلة لم يعرف بر مصر مثلها ولا فى الأحلام يختارها فيها الخديو لتتزوج من ابنه حسين وليصبح العرس هو عرس الأسرة المالكة فهو عرس الأخوة الأمراء توفيق وحسن وحسين وفاطمة أبناء الخديو اسماعيل.

ولهذا تحمل الهدايا فى أسبنة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس ويرتدى الجميع وارد أوروبا التى يعشقها الخديو فتتنافس الأقمشة المطرزة باللؤلؤ والأحجار الكريمة والزمرد مع تيجان الملك على كل جبهة ملكية.

فى هذه الليلة تألقت فاطمة ابنة الخديو اسماعيل وعين الحياة ابنة أحمد رفعت باشا عندما جمعهما فى هذه الليلة المصير فى مقاسمة الأضواء.

فهذه ليلة من الليالى التى مرت على عين الحياة وحسدها الناس عليها إلا أن النهار الذى عاشته مع الفلاحين وحدهم والذى لم تكن فيه مجرد أميرة أو تحفة فى القصر هو الأبقى.

ويتوقف الراوى قليلا لكى يتذكر تفاصيل أخرى وأحداثا من حكاية الأميرة غابت مع الأيام.. فيعود ويحكى عن نهار لم تعرف المحروسة مثله، عندما أقامت الأميرة مسجدا وسبيلا باسمها. ونهار آخر قرأت فيه الأميرة جريدة اللطائف وتوقفت أمام ما كتبه الأدباتى عبد الله النديم خطيب الثورة العربية عن مصر حين تعرضت فلاحه مصرية

للجلد بالكرباج حتى الموت لأنها رفضت أن تدل على المكان الذى كان زوجها يضع فيه أموال معاشهم أو أقل القليل الذى يملكه. فقد تهيأ قلبها للثورة على الظلم والاستبداد ولهذا لا عجب عندما يتحدث التاريخ عن مساعدة أميرات فى الخفاء لعرابى وإخوانه ضد الاحتلال. فهؤلاء مصريون حقيقيون ومن يقل غير ذلك فقد جاء بقول آثم.

ولهذا ظلت هذه الجهود لسنوات وسنوات تعين الناس فى بر مصر على تحمل مشاق المرض وعذاباته بعد أن رحلت الأميرة وهكذا فإن صباحا يأتى بعد صباح وعين الحياة تواصل أحلامها. فلم يكن فى حياتها صباح واحد خذلها.

وقد تذكرها الناس يوم أعلن حسين كامل سلطانا على مصر وتذكروها عندما وقف ينصح أبناء مدرسة الحقوق السلطانية من المصريين بالتفرغ لأشغالهم فقط وليدعوا حب الوطن المتطرف لأن التجارب هى التى ستفيدهم.

وأما الصباح الوحيد الذى كرهه أبناء البلد فى سيرتها فهو الصباح الذى أسلمت فيه الروح وتركت كل هذا الخير يشفع لها. فقد كانت مسيرة خاصة للحب لم تعرف المحروسة لها مثيلا فى الخير وحب الوطن. وكيف لا يتذكرها أحد وقد رحلت بعد أن أعطت النهار فرصته واختارت مصالحة النفس لا الملك والسلطان قبل أن يصبح من اختاره لها الخديو زوجا سلطانا على مصر.

الكنز

شكر

خاص لكتاب «القاهرة.. تاريخها وفنونها وآثارها» الذى أورد كاتبه د/ حسن الباشا تفاصيل هذه القصة وكانت الملهم فى كتابتها بهذا الشكل القصصى. فكل ما فعلته هو تحويلها إلى قصة...
بعد الصلاة على النبى العدنان... نحكى عن تصاريق القدر. والزمان. فهذه حكايات وكأنها قصص صندوق الدنيا فلا تحدث إلا فى الخيال. إلا إنها وكما يؤكد راو فى مقهى شعبى وقعت فى بر مصر وتناقلتها الأجيال. فقد قالت له أمه فى إحدى ليالى الشتاء وأنه ما من أحد جاء إلى مصر وكتب عليه الإياب إلى أرضه إلا بنظرة أخيرة على البلاد تعيش فى قلبه إلى الممات يتذكر هذه الأيام ويصفها بأيام التبات والنبات.

وتبدأ الأم حكايتها إلا إنها وكما يحكى الراوى لم تكن كعادتها حيث إن كلامها فى تلك الليلة البعيدة كان مختلفا عن كل ما سبق. فكثيرا ما كانت تتوقف عن الحكى لتثبت الأغصية الثقيلة حول قدميها بعد أن نفذ إليها برد الشتاء، وكثيرا ما كانت تأخذها الحكاية إلى الأسطورة برغم أنها حدثت بالفعل فى بر مصر. إلا أن أكثر ما شد انتباه الراوى صوت دقات قلبها وهى تحتضنه وهى تحكى. وسؤاله الذى لم تجب عنه حول بطل هذه القصة... قصة كنز الإسلام.

وقصة كنز الاسلام لا يوجد بطل واحد لها. فهي قصة يعرفها المصريون وسمعتها الأم في صباها وشبابها من جدتها التي وهن سمعها. وقد عرفتة أيضا من خالتها وأخريات وأرخها المقریزی بنفس الاسم الكنز وكتبها كحكاية نقلها عنه المؤرخون والكتّاب، ولم يعرف بطلها. فربما كان ابن طولون وربما كان تل يشكر وربما كان المصريون أنفسهم هم الأبطال.

ولم يقنع هذا الحديث الراوى وخاصة إنه كان لا يزال صغيرا فاستدار إليها متسائلا: كيف يا أماه يكون للقصة أكثر من بطل. وهنا تنهدت الأم التي تعرف من أحوال الدنيا أكثر مما يعرف الصغير في أحضانها. فما أغرب هذه الحياة وما أجمل مصر وتل يشكر الذي نبدأ عنه الكلام.

فيحكى إنه في زمن بعيد كان هناك تل مرتفع مجاور للفسطاط. هذا التل هو تل يشكر صاحب الأساطير الذي وصفه أهل حى الخليفة بأنه تل مبارك، وهناك من يقول أن تل يشكر قد عرفه سيدنا موسى عليه السلام. وهناك من يحكى عن وجود حارس الخير وعن وجود سراديب سرية في المكان.

إلا إننا في حقيقة الأمر لا نستطيع أن نتأكد من هذا فما نعرفه يقينا أن تل يشكر كان ولا يزال مباركا لأن رعيلًا من المسلمين الأوائل الذين فتحوا مصر قد استقروا به. وإن التل نفسه قد اتخذ اسمه من يشكر بن جزیلة أحد الفاتحين لمصر بمشيئة الله عز وجل. وأن الخير كله قد عرفه المصريون في هذا المكان وما حوله.

فالتل يرتفع عن الأرض ويبقى ناظرا إلى السماء فى رهبة وخشوع فهو تل مصرى جميل ربما به شىء من ورع المؤمنين فى مكة والمدينة، ويغمض الراوى عينيه فربما كان خياله أسبق إلى تل يشكر الذى مازال يعيش على أرض مصر إلا إنه يعود إلى أمه ويسأل... وماذا عن ابن طولون؟

وتصمت الأم قليلا ثم تبتسم وتقول: إنه صاحب المسجد الجامع، وأصل حكاية الكنز، فلولا مسجده العتيق لما كانت قصة الكنز، ولولا ما فعله لنسيه التاريخ أو ليس من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب؟!

فابن طولون أمير وهو كما يحكى التاريخ والى مصر فى زمن العباسيين وقد جاء إليها بناء على رغبة بكباك الذى ولاه الخليفة العباسى فى الأصل أرضها. وقد حدثت المصادفة وجاء إلى مصر إلا أن التوفيق شىء آخر. فلولا توفيق الله تعالى ما حدثت القصة كلها. فقد شاء الله تعالى أن يتزوج ابن طولون ابنة ياركوج الذى رشح واليا لبر مصر بعد باكباك فجعل الأمر متروكا لابن طولون مع الأيام التى لم تعاند ابن طولون بل ثبتت أقدامه فى مصر ليصبح واحدا من أهلها. أوليس كل من عاش على أرض مصر يعد مصريا كما اتفقنا؟!

نعم يا أمى

إنن هو مصرى يا بنى وقد عاش قريبا من الفسطاط إلا إنه حدث إن ضاقت البيوت بسكانها وإنك تعرف عادة المصريين فى الإنجاب وانتظار العوض فى الأبناء.

فلم يبق شبر لم يعمره الناس بالبيوت والأسواق وحتى المسجد الكبير لم يعد أحد يرى الراحة ويعرف الطمأنينة والصلاة به والدعاء لكثرة الخلق وتزاحم الكتف بالكتف.

فهذا ما حدث فى العاصمة التى عندما وصل فيها الأمر إلى هذا الحد، وبنظرة سريعة للبلاد قرر ابن طولون أن يجعل له حاضرة أخرى وأن يتقرب إلى الله تعالى بمسجد يشبه مسجد الرسول بالمدينة ومسجد سامرا. وقد كانت عادة الولاة ممن سبقوه وتبعوه إذا عزموا شيئاً أن يفرضوا ضريبة على الناس. إلا أن ابن طولون لم يرد هذا فأراد أن يسقط هذه الضريبة ولم يكثرث بمن يوسوس له بخطأ ما فعل. حتى إذا جاء يوم كان قد أوغل فيه فى الصحراء تعثرت قدم أحد خيول مصاحبيه فى الرمال وسقط على حافة الكنز بدلا من سقوطه على الرمال. وهذا الكنز لم يعرف له صاحب ولا هيئة معينة فقد كتم من كان فى معية طولون تفاصيله إلا أنهم قالوا إن المكان كان مليئا بالخير.

وهكذا كان هذا المسجد فاتحة خير على مصر، وهكذا أراد ابن طولون أن يكمل وعده بالتزام الرحمة فلم يفتصب أحجار مبان أخرى فى مصر وعلى أعين أصحابها.

بل إن الأمر تعدى هذا بإطلاق سراح رجل فى السجن بعد أن دارت عليه الأيام وفتت عظامه ليخطط هذا المسجد على رأى من ابن طولون وأقيم مكان خاص بجانب الفسقية داخل المسجد ليجلس إليه الصبية من طلاب العلم كل يوم جمعة ليتعارفوا ويعرفوا أمور دينهم. فباب العلم والفقہ مفتوح على مصراعيه أمام كل قلب يشعر ويفهم.

وقد أقيم إلى جانبه بيمارستان أو مستشفى صغير يصرف فيه الدواء للناس.

هل خفف ابن طولون عن المصريين العمل في المسجد أثناء نهار رمضان فلم يكن يطول العمل بعد اصفرار الشمس. فكان هذا التخفيف وهذا العطاء هما السبب في وجود هذا المسجد المبارك الذى قيل إن له اثنين وأربعين بابا من الأبواب وصحفا مربعا تتوسطه فسقية يحيط بها أربعة إيوانات بها مائة وتسعة وعشرون شباكاً وأكثر من محراب منها أربعة يحمل اسم السيدة نفيسة أما المئذنة التى تشبه مآذن سامرا فلم تعرف مصر مثلها بين الشكل الدائرى والمربع والحلزونى.

وقد بنى المسجد على مستويين وجاء سقفه من جذوع النخيل وزخارف جدران لم تشهد البلاد مثلها.

وأما العرائس التى تزين المسجد فقد كانت تحتاج من وقت لآخر للإصلاح الذى تولاه أهل مصر جيلا بعد جيل ومن زمن قلاوون إلى زمن على باشا مبارك ومن جاء بعده إلى يومنا هذا.

وهكذا الحياة تعطى من لا يجرى خلفها فأصبحت القطاعات التى بناها ابن طولون حول مسجده مدينة كبيرة يعيش بها المصريون وتمتد من قلعة الجبل الآن إلى جامع.

وقد كثرت فيها القصور والحدائق حتى قيل إنه فى هذا الزمن قد بلغ عدد الدور المصرية مائة ألف دار برغم أن النفقة التى أجزلت للمسجد لم تتجاوز المائة ألف دينار فلم يكن هذا الامتداد العمرانى متوقعا.

وأما ابن طولون فيحكى أن الأمر كله كان بتوفيق من الله تعالى ورحمته. فقد رأى الرسول ﷺ في منامه يخط له هذا المسجد ورأى النمل يتجمع حوله. وكان هذا النمل وحسب تفسير المفسرين لابن طولون هم الناس الذين عاشوا في هذا المكان وهم المصريون الذين باركوه بأعمال البر.

حقاً لم يخطئ ابن طولون حين كتب هذه الكلمات: أنشئ هذا المسجد المبارك الميمون بجماعة المسلمين ابتغاء رضوان الله وألفة المؤمنين وسعيه في عمارة بيت الله وأداء فروضه وتلاوة كتابه ومداومة ذكره بقول الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ أَن تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة النور الآيات: ٣٦ - ٣٨].

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، ويغمض الراوى عينيه ولكنه يغالب النعاس بالسؤال: ولكن يا أمى ماذا فعل المصريون بعدها؟

وهنا تفرج الأم عن ابتسامة تشرق لها نفسها: أما يكفيك ما قلت فمن الذى بنى المسجد وعمر المدينة ومن الذى تعلم داخل رحابه، ومن يا بنى هؤلاء الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟ أعتقد يا بنى إنك تعرفهم فعندما يأتى الصبح سوف أصحبك إلى هناك إلى تل يشكر لقرى أبطال القصة الحقيقيين الذين لم يختلفوا فى الكثير ولا القليل عن أجدادهم.

أما ابن طولون فقد جاء إلى البلاد وظلت صورتها في قلبه إلى الممات. فقد كان شخص يحمل الكثير من الصفات الحسنة والكثير من الصفات التي تحسب عليه. فلا يوجد شخص حكم مصر إلا وكانت له الكثير من الأشياء التي تحسب له والكثير من الأشياء التي تحسب عليه.

ولكن يا أمى ماذا عن الكنز؟

الكنز يا ولدى لم يكن فقط مالا ولكنه كان فى قوله تعالى:

﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
[سورة النور آية: ٣٨].

وهكذا يابنى فهذه الحياة قصيرة ولهذا أترك لك كلمات فربما لا أكون بعدها معك وتكون هذه أيامى الأخيرة. فيا بنى استعن بالله ولا تعجز واتق الله وسوف يجعل لك مخرجا أينما كنت. وبينام الراوى ولا يغالب النعاس وكذلك الأم التى تستغفر الله لنفسها ولأهلها ولفرسان الخير الذين عرفتهم البلاد.



ست الملك وقلاوون

هل تعرفون ست الملك؟

سمعت بهذا الاسم فى القصص والحكايات الشعبية إلا أن كثيرا ربما من المصريين لا يزالون يذكرونه. فهو اسم ليس بعيدا عن الذاكرة، ويتكرر فى المسلسلات الإذاعية وفى القصص الشعبية.

ولكن من تكون ست الملك أولا؟ فلا بد من تقديمها لنا قبل بداية الحكى. فقد اتفقنا أن نتعرف إلى الأبطال أولا قبل أن نقص أية قصة ومنها حكاية هذا البيمارستان.

ويبدو أن تفاصيل كثيرة سوف تأخذنا، فهى رواية تحتاج إلى كاتب فى قمة نجيب محفوظ ليحكى عنها وإن كانت قد ظهرت من قبل كما قلنا فى المسرح والقصص الشعبى ولكنها فى النهاية مجرد قصة من الحياة.

فست الملك هى ابنة الخليفة العزيز بالله وأخت الخليفة الحاكم بأمر الله وهو ما يعنى أنها عاشت فى زمن الفاطميين فى بر مصر وأنها كانت صاحبة دور على مسرح الحياة فى هذا العصر.

ونقترب أكثر من ست الملك ومن ملامحها.. فأمها سيدة رومية وقد ولدت فى بلاد المغرب موطن الفاطميين وهى تكبر أخاها الحاكم بأمر الله بخمسة عشر عاما كاملة.

وفى التاريخ تأكيدات وكما يشير د/ عبد الرؤوف يوسف بأن عمرها عندما توفى والدها كان ستة وعشرين عاما وأن الحاكم وقتها لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره. (١٠)

وتبدو وفاة الوالد هى البداية المتفق عليها لقصة ست الملك بل وبداية أحداث الرواية كلها حين سافرت إلى القاهرة المعزية ليلا حتى تحافظ على عرش الخلافة.

فهذا هو المنطق الذى تبنته ست الملك وأفهمته لمن حولها حتى بدا وضعها مقبولا من الجميع. فهى الأخت المخلصة لأخيها والوفية لوالديها وأسرتها التى يبدو كل همها فى هذه الدنيا هو الحفاظ على عرش مصر.

وتمر الأيام حتى يبلغ الحاكم الخامسة عشرة من العمر، عندها بدأت فى هذه السن تظهر عليه أعمال الاستبداد وجنون العظمة إلى حد أنه قتل مربيه برجوان الصقلى وأراد أن يفعل الشيء نفسه بأخته التى ناصرتة.

فقد كان - وكما يحكى الناس - صاحب شخصية غريبة. وقد تردد الكلام نفسه فى الكتب التى تتناول التاريخ المصرى حتى إن المقرئى يحكى فيما يحكى أن الحاكم كان يعتريه جفاف فى دماغه ولهذا قتل الكتاب والوزراء وتخبط فى قرارات غريبة حتى إنه ولى ابن عمه ولاية العهد بدلا من ولده.

وقد احتار الناس فى أمره وإن كان هناك من يقول إن مصر برغم هذا عرفت شيئا من الاستقرار فى عهده حتى خرج وكما تروى القصص الشعبية فى ليلة إلى جبل المقطم لرصد النجوم فلم يعد. وأصبح خروجه المفاجئ من الحياة لغزا حتى شاع بين المصريين أن ست الملك وراء هذا الاختفاء غير المبرر.

إلا أن هناك وخاصة فى كتب التاريخ من ينفى كل هذه الشائعات، مستندا إلى أمرها بقتل سيف الدولة بن دواس الذى يعتقد أنه كان سببا فى موت الحاكم بأمر الله أو حتى اختفائه غير المبرر، ويقال إنه باختفاء الحاكم عادت ست الملك من جديد إلى سدة الحكم ولكن من خلال ابن أخيها حتى وافتها المنية وانتهت صفحة حياتها، وهذه الحكاية ليست بالبسيطة وخاصة إنها جرت على أرض مصر وتداولتها الكثير من الأقلام واعتبرت فى رأى من عاصروها مأساة حقيقية. فأطرافها بشر أحبوا السلطة والحكم أكثر مما أحبوا أنفسهم، بل إن جنون العظمة الذى كان أكثر ما يميز شخصا كالحاكم بأمر الله يبدو فى كثير من الأحيان جنونا مفتعلا اصطنعته الظروف والانفراد بالحكم الذى جعل منه ذلك الشخص الذى يأمر ليطاع.

ويروى د/ حسن إبراهيم حسن فى «تاريخ الدولة الفاطمية» القصة من وجهة نظره.

فقد اختلفت الروايات فى وفاة الحاكم، فيقول بعض المؤرخين إن أخته ست الملك بالفعل من دبرت قتله لسوء تصرفه، فاتفقت مع سيف

الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة على اغتياله وقالت له: «لى إليك أمر لا بد لى فيه من الاجتماع بك، فإما تنكرت وجئتنى ليلا أو فعلت أنا ذلك فقال: أنا عبدك والأمر لك. فتوجهت إليه ليلا فى داره متنكرة، ولم تصحب معها أحدا.

فلما دخلت عليه قام وقبل الأرض بين يديها دفعات ووقف فى الخدمة، فأمرته بالجلوس وأخلى المكان.

فقالت: يا سيف الدولة! قد جئت فى أمر أحرس به نفسى ونفسك والمسلمين، ولك فيه الحظ الأوفر، أريد مساعدتك فيه.

فقال: أنا عبدك فاستحلفته واستوثقت منه، وقالت: أنت تعلم. ما يقصده أخى فيك، وإنه متى تمكن منك لم يبق عليك، وكذا أنا، ونحن على خطر عظيم. وقد انضاف إلى ذلك تظاهرة بادعائه الألوهية وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه وقد زاد جنونه.

وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه، فيقتلونه ويقتلوننا معه، وتنقضى هذه الدولة أقبح انقضاء.

فقال سيف الدولة: صدقت يا مولاتنا، فما رأى. قالت: قتله ونستريح منه.

فإذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه وبذلنا الأموال، وكنت أنت صاحب جيشه ومدبره، وشيخ الدولة والقائم بأمره. وأنا امرأة من وراء حجاب وليس غرضى إلا السلامة منه. وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة. (١١)

ثم اتفقت مع عبيدين على قتله عند خروجه إلى جبل المقطم، فظلا يرقبانه إلى أن قرب الصباح، فوثبا عليه وطرحاه أرضا وقتلاه، ثم حملاه إلى ابن دواس، فحملة مع العبيدين إلى أخته ست الملك فدفنته في مجلسها. وكان ذلك في ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١هـ.

وهناك رواية أخرى تقول إن الحاكم خرج في هذه الليلة راكبا حمارا، وبصحبه رجلان. وإنه اختفى عنهما ولم يعثرا له على أثر. فقام بعض رجال الدولة وقضاتها، وأخذوا في البحث عنه، فعثروا على الحمار الذى كان يركبه مقطوع اليدين. ثم تابعوا السير حتى وصلوا إلى بركة شرقى حلوان، فوجدوا فيها ثيابه: وهى سبع جباب مزررة وفيها أثر السكاكين.. ثم ظهر رجل من الصعيد وادعى انه قتل الحاكم واعترف بذلك.

ولما سئل عن سبب قتله قال: قتلته غيرة لله والدين. فقليل له وكيف قتلته؟ فأخذ سكيناً وضرب بها قلبه وقال: هكذا قتلته، ولم يلبث أن خر صريعا وتوفى.

ليعتقد الدرزية أن الحاكم اختفى فى سنة ٤١١هـ، وإنه سيعود إذا زالت المفاسد المنتشرة فى العالم. (١٢)

وبرغم أن الروايات حول حقيقة موقف ست الملك تختلف إلا أن الوقائع التاريخية لا خلاف عليها. فالحاكم بأمر الله فى سنه الصغيرة بدا غير ناجح فى التعامل مع أمور الحكم.

فعندما تولى ثار عليه الكتاميون وهم شعبة من الجند قامت على أكتافهم الخلافة الفاطمية، ولهذا لم يكن من الصغير إلا أن استجاب لهم وأعطاهم فوق ما يتمنونه حتى إنه فى المقابل أبطل أعطيات الجنود الأتراك. وهو ما أثارهم على الكتاميين المغاربة الذين لم يكتفوا بما حدث وزادوا فى الأمر. لتدور عربة جهنمية من التنافس كان نتيجتها تولى برجوان الوزارة وانفراده بالسلطة.

وهو الأمر الذى لم يرض عنه أبدا الحاكم حتى ولو اعتبرنا أن برجوان قد نجح بالفعل فى أن يكون من أقرب الناس إليه.

ولهذا دبر الحاكم مكيدة للتخلص من برجوان فقتله فى حديقة منزله. وليصبح الحاكم بعد هذا حرا طليقا يفعل ما يشاء بشئون مصر وليظهر تخبطا فى القرارات. فهو متعصب لمذهبه لا يرى صلاحا فى غيره، وقد جعل اليهود والنصارى يلبسون الشارة التى يعرف بها غير المسلمين.

فقد كان الحاكم بأمر الله الذى يقول عنه المصريون اليوم إنه قد منع أكل الملوخية، وأنه جعل الناس تنام نهارا وتعمل ليلا ليس إلا صاحب سياسة متذبذبة تجعل حتى أقرب المقربين إليه عرضة لضغوطه التى لم يعرف أحد الفكاك منها فقد كانت قراراته ليست إلا صورة مصغرة من اضطراب الحياة من حوله.

فالجند يطلبون العطايا والوزراء يعملون لمصالحهم الشخصية وهناك تهديد عسكري من حدود مصر الغربية يترجمه قائد يدعى أبو ركوة يعتقد في قرارة نفسه إنه أحق بمصر وزرعها ونيلها وخاصة إنه وكما أذاع من سلالة أموية كانت تحكم الأندلس.

ويبدو الحاكم بأمر الله لغزا يصعب تفسيره حتى ولو تطلب الأمر منا اقترابا أكثر من المشهد السياسى والاقتصادى والاجتماعى لمصر. فهو برغم كل هذه التصرفات التى تحسب عليه كان وفيها لفكرة إقرار الأمن والاستقرار فى ربوع مصر. ولم يحدث فى زمنه الكثير من الاختراقات الاجتماعية للمجتمع الذى كان يعالج تصرفاته بإطلاق النكات على الحاكم الذى يأمرهم أن يلبسوا هذا ولا يلبسوا هذا.

أما عن علاقة ست الملك بالبيمارستان الذى عرف بين المصريين باسم بيمارستان قلاوون فهذه قصة أخرى تخرج من بطن هذه القصة وتستحق أن تروى. فالحقيقة أن بيمارستان قلاوون قد حل محل قاعة من مباني القصر الغربى كانت تملكها ست الملك. وهذه القاعة بل والقصر بشكل عام انتقلت ملكيته فيما بعد إلى أميرين من بنى أيوب ثم من بعدهما الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية التى وهبها السلطان قلاوون قصر الزمرد فى مقابل التخلي عن هذا القصر.

فكانت هذه هى المرة الأخيرة التى يتداول فيها امتلاك المكان قبل أن يؤول أخيرا إلى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الذى قرر إقامة البيمارستان فى هذه الدار وإن بقيت القاعة على حالها فى بيمارستانه كشاهد على كل من سكنها.

ويحكى الرواة إن أهل مصر- بعيدا عن قصة هذا القصر الذى أصبح على حال وأمسى على حال وسكنه الكثير من أولى الأمر- قد تعجبوا كثيرا من هذا البيمارستان حتى أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن سبب إصرار السلطان قلاوون على إنشائه.

إلا أن السبب الحقيقى كان يدركه كل قريب من السلطان قلاوون الذى تعرض لمحنة صحية فى إحدى غزواته فذهب يتلقى علاجه فى بيمارستان نور الدين بدمشق. فنذر إن أصبح يوما سلطانا على مصر أن يكون بها بيمارستان أفخم من ذلك الذى عولج به فى الشام.

والواقع أن كلمة بيمارستان كلمة فارسية الأصل وتعنى مستشفى. وقد أنشئ أول بيمارستان فى الإسكندرية وأنشئ آخر فى القاهرة وهو البيمارستان العتيق فى زمن الناصر صلاح الدين الأيوبي.

أما السلطان المملوكى قلاوون فيحمد له نجاحه فى إقامة هذا البيمارستان الأشهر فى تاريخ مصر الإسلامية فى شارع بين القصرين إلى جوار المدرسة الصالحية.

وهو يتكون من مجموعة متكاملة من أجمل فنون العمارة فى العصر المملوكى، فهناك مدرسة وضريح إلى جانب البيمارستان الذى يقف شاهدا على ذلك الزمن البعيد.

وقد تم له ما أراد وتولى أمر مصر وانتهى من مبناه الضخم فى مدة لاتتجاوز العامين حتى إنه يقال إن الناس كانوا يتعمدون الاختفاء فى بيوتهم مخافة التعرض للسخرة لبناء هذا البيمارستان.

فقد ذهب الحلم والطموح بقلالون أبعد مما كان فى نفسه فتجاسر على هدم قلعة سيده الصالح نجم الدين أيوب - والذى كان آخر الأيوبيين الذين حكموا مصر وتعمدوا الإكثار من جلب الممالك حتى تهيأت الظروف فيما بعد لى يحكموا مصر بشكل منفرد - فى الروضة واستعان برخامها الفخيم فى بيمارستانه.

وقد حدد قلاوون أقساما بالمستشفى حيث تعدد الترتيب والإعداد الجيد له فأصبح هناك قسم للجراحة وقسم للرمد وقسم للنساء. وأضاف إليهم مكتبة وصيدلية ومطبخا ومعامل بل وكما يحكى شحاتة عيسى فى كتابه «القاهرة» جوقة موسيقية تخفف آلام المرضى وخمسين من القراء يرتلون القرآن الكريم.

ويعتبر هذا البيمارستان وبكل المقاييس تحفة فنية تختص بشبابيك وآيات قرآنية وأعمال الرخام. وهذه الأعمال مازالت موجودة وقائمة إلى الآن وتشير إلى الزمن الجميل الذى كان، وإن كان قد تحول جزء من هذا البيمارستان بعد سنوات يصعب عدها إلى مستشفى قلاوون للرمد ليعاود دوره من جديد فى شفاء المرضى.

وهل كان قلاوون نفسه يعلم أن هذا المستشفى سوف يعيش أكثر مما يتصور وأن مجموعته قد تكون بحق أكبر حسناته فى الدنيا والأطول عمرا بين كل أمجاده. أم أن هذا المكان قد أراد الله تعالى له أن يكون شاهدا على لعبة السلطان فى مصر بكل تفاصيلها الجيدة والسيئة؟

فى سبيل الخير

قصص وصور من قريب لأماكن عاشت فى بر مصر مدعمة ببركة
الله تعالى وبأفكار تدعو للخير والصلاح وتذكر معنى التقوى ولدت فى
شهر رمضان المبارك وتكاتف على تحقيقها المصريون والمتمصرون الذين
اختاروا بر مصر المحروسة.

عطشان يا صبايا

إذا ما أهل هلال رمضان لا يعرف الناس السكون، ولو للحظة من مكان ليل أو نهار في المساجد والكتاتيب.

فإذا كانت قباب المساجد ومآذنها وورع الناس والإخلاص في الصلاة أشياء مفهومة في هذا الشهر المبارك.

وإذا كانت حركة التجارة والبيع والشراء والرائح والغادي هي تعبير عن نمط الحياة اليومية في الأزقة والحارات الضيقة.

وإذا كانت الكتاتيب هي في الأصل أمكنة مباركة لا ينقطع فيها تعلم معاني سور القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية لتحفيظهما لصفار المسلمين... فإن الأسبلة كانت شيئاً آخر بالنسبة لكل من سكن القاهرة العتيقة.

ففي الإسلام هناك قاعدة تقول «لا ضرر ولا ضرار».. وهناك تفسير مصرى حول واحدة من خير الأعمال وهي بر الناس واعتبر من البر سقاية العامة والدواب على وجه التحديد فهي صدقة جارية حتى بعد رحيل صاحبها.

فبقدر من يستفيدون من السبيل بقدر ما يكتب لصاحبه حسنات عند ربه.

وقبل أن ندخل فى تفاصيل كثيرة تهمنا يجب أن ننتبه إلى أن هناك مبدأ كان يحكم عصر الأسبلة والكتاتيب كانت تلتزم به شوارع القاهرة على طولها وعرضها.

طابع يمكن أن نصفه بالرغبة فى التجويد والمنافسة من أجل بلوغ الأفضل.

فإذا نودى للصلاة سمعت أصوات المؤذنين تتنافس بين مآذن المساجد وقبابها ليحصلوا على بركة حلاوة الصوت وتجويد القرآن الكريم.

وعندما يدعو خليفة أو حاكم لبناء مسجد أو خان أو وكالة أو حتى منزل يتنافس البنّاءون والصناع فيما بينهم لإخراج أفضل ما عندهم لبلوغ درجة مشهودة من الرقى والجمال.

ولو حدث وقرر أحدهم أن ينفق شيئاً فى سبيل الخير تنافس الناس فيما بينهم ولهذا ولدت هذه الأسبلة.

أما عن التاريخ الذى ولدت فيه هذه الأسبلة فقد أشار إليه أكثر من باحث ومؤرخ وكاتب ومحب للفنون الإسلامية الراقية ومن الأمثلة ما كتب فى موسوعة «مدينة القاهرة فى ألف عام» للدكتور عبد الرحمن زكى الذى كتب يقول:

كان السبيل فى الأصل ملحناً بأحد أركان المسجد ليشرّب الناس وفى أغلب الأحيان كان يعلوه مكان لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ويعرف بالكتاب ثم أصبحت هذه الأبنية فيما بعد منفصلة كما هو الحال فى القاهرة.

وقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم بإنشاء أسبلة للناس وأحواض السقى للحيوانات فى مختلف مواضع المدينة. ويقوم بتسبيل الماء فى السبيل «المزملاتى» الذى يؤدى عمله فى الأوقات المحددة فى الأيام العادية وفى شهر رمضان. ولا يزال بالقاهرة القليل من الأسبلة التى شيدها المماليك وفيها ثلاثة أسبلة شيدت قبل القرن السابع عشر. أما ما شيد من الأسبلة فى القرن السابع عشر فعددها ثلاثة وثلاثون، وعدد ما شيد منها فى القرن الثامن عشر فثلاثة وثلاثون أيضا. وفى القرن التاسع عشر شيد ثلاثة عشر سبيلا فقط. ومن المحتمل أن ما شيد منها فى أوائل القرن العشرين لا يزيد على أربعة. (١٣)

أما ولماذا شهدت هذه الأبنية هذه الطفرة فى التوسع والإنشاء فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وبدأت فى الاندثار فى القرن التاسع عشر حتى وصلت إلى أربعة أسبلة فقط فى بداية القرن العشرين؟ فإن الإجابة وبلا شك تتعلق بحركة الحياة فى بر مصر.

فقد ابتكرت الأسبلة وسادت فى زمن كانت السقاية فيه هى الأساس للحصول على مياه للشرب حتى إذا ما بدأت الحياة تختلف وأظهرت المدنية الحديثة قدراتها بعد عصر محمد على بدأت الأسبلة فى الانقراض وفتح الطريق أمام سبل أخرى للحصول على مياه نقية. والأسبلة وبرغم أهميتها المعمارية والفنية، حيث إنها فى الأصل واحدة من حلقات العقد الفريد للعمارة الإسلامية الذى يضم الخانقاوات والخانات والأسواق والمدارس والبيمارستانات، التى لا تقبل الجدل

ولدت أيضا لتنفى ما أشيع من أن العمارة الإسلامية قد خلت من المباني العامة كما يجادل وبقوة عالم الحضارة الكبير د/ ثروت عكاشة.

فالسبيل قد حل محل المسارح والملاعب التي كان يتنافس الموسرون اليونانيون والرومان في الإنفاق عليها.

وبرغم أن هذه المقارنة تبدو ظالمة في رأيي، حيث إن الثقافة المصرية قد نست المسارح والملاعب الرومانية باستثناء نماذج بسيطة مازالت موجودة في شمال مصر وبخاصة في الإسكندرية.

إلا أن فكرة الإنفاق مازالت هي المسيطرة وإن كان الإنفاق على سبل الخير هو الأساس في القاهرة العتيقة.

وهكذا عاشت الأسبلة في كنف المساجد والمدارس والخانقاوات حتى بلغت أشدها وأصبحت مبانى قائمة بذاتها ولا حاجة لها في رعاية من مسجد أو مدرسة. بل إن الممالك قد جاءوا يؤكدون هذه الفكرة وأصبح من البر قصد السبيل في حد ذاته. فذات السبيل التي كانت ومازالت طفلة في بدايات العهد بالعمارة الإسلامية قد اكتنفها شيء من الزهو وأصبحت شابة تعيش بدعم المجتمع المصرى.

وبمرور الزمن ألحق بها بناء لتحفيظ القرآن الكريم، وهو ما يعنى أن شكل الشوارع والحارات المصرية قد أعطت للأسبلة امتياز الاستمرار. فصحيح أن ضيق الشوارع وتقارب المنازل قد منح الشوارع المصرية ميزة خاصة تجعل أى عابر سبيل يحتمى بالظلال الوفيرة. (١٤)

إلا أن وجود هذه الأسبلة كان تعويضا آخر عن قيظ القاهرة الذى لم يكن يهدأ إلا فى بدايات الخريف وبداية أوان البلح الأسود الذى يؤكد للمصريين أنه قد حان موعد انكسار الحرارة.

وقبل أن نقفز بالزمن بعيدا نعود مرة أخرى إلى شهر رمضان فى هذا الزمن الجميل حيث تقص علينا الموسوعة المصرية «تاريخ وآثار مصر الإسلامية» كيف كانت تعمل الأسبلة من وقت المغرب حتى السحور وكيف تمتعت بالإنفاق عليها.

أما الواقفون فكما تقول الموسوعة فكثيرا ما اشترطوا فى الزملاتى شروطا جسيمة كأن يكون سالما من العاهات والأمراض وخاصة الجذام وأن يسهل الشرب على الناس وأن يعاملهم بالحسنى والرفق. أما الأدوات المستخدمة فكانت حبالا من الكتان والليف والبخور وأباريق النحاس وقلل الفخار. (١٥)

وقد يتعجب البعض، فمصر بلد النيل الذى كان يملأ البلاد بالخير والخضرة فكيف يقسو على القاهرة مدينة المعز الجميلة. ولكن الواقع يقول إن السقاية كانت حرفة شأنها شأن كل الحرف والصناعات الأخرى. وكان الماء فى هذا الزمن سلعة تباع وتشترى.

وكان من عادة السقايبين أن يحملوا القرب على ظهورهم ويتجهوا إلى بيوت دون غيرها ليمدوها بالماء الذى كان يحفظ فى الأزيار والقلل، وكان هذا المشهد هو أحد المشاهد الأساسية فى حياة القاهرة العتيقة وحتى العصر الحديث. وهذا يعنى أن الماء لم يكن متوافرا للعمامة ولهذا

أنشئت الأسبلة التى كانت عبارة عن صهاريج تحت الأرض أو أبيار تملأ بالماء حتى إذا ما انتهى عمرها جاء صاحب السبيل بغيرها.

والقاهرة التاريخية كما يطلقون عليها اليوم صاحبة أكبر نصيب من الأسبلة الشهيرة والمهمة فى الوقت نفسه أمثال سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا ونقيسة البيضاء وسبيل قنصوة الغورى الذى كان ضمن مجموعته الشهيرة وسبيل وكتاب السلطان قايتباى وغيرها.

وهناك أيضا أسبلة ربما لم تنل نفس الحظ من الشهرة وقد نتعجب عندما نتعرف إلى أسمائها مثل سبيل خليل أفندى المقاطمجي الذى شيد فى القرن السابع عشر وسبيل إسماعيل مغلوى الذى أنشئ أيضا فى نفس القرن وسبيل حسين الشعيبي الذى بنى فى أواخر القرن الثامن عشر.

ويمكننا أن نتجول فى القاهرة التاريخية لنقابل أشهر الأسبلة وهو سبيل أم عباس الذى ولد عام ١٨٦٧م بشارع الصليبة على يدى والده عباس ابن عم إسماعيل باشا والتى تتميز بخطوطها المعمارية والهندسية وسط الشارع الذى يضم الكثير من الآثار المهمة.

ويقع السبيل عند مفترق الطرق والأرض مكسوة بالرخام. أما الشبابيك فمن النحاس الأصفر وتنتشر الآيات القرآنية المكتوبة بالذهب. والسقف منقوش بالأصباغ الذهبية أيضا.

أما سبيل ووكالة نفيسة البيضاء المرادية التى تشغل ناصية عطفة الحمام، وأنشئت عام ١٧٩٦م أى فى نهاية القرن الثامن عشر فيقال - والعهد على موسوعة مدينة القاهرة - إن هذا الأثر كان يشغل

قيسارية القاضى الفاضل وكان يباع فى هذه الوكالة الشمع والمكسرات والقماش والسكر فعرفت السوق باسم السكرية.

ويتضح التأثير التركى فى الأسبلة وواجهة السبيل بها تشابيك نحاسية ونقوش وزخارف أسفل عقود دخلات التشابيك وهى محفورة فى الحجر.

والمعروف أن نفيسة كانت زوجة مراد بك آخر حكام مصر من المماليك الذى فر من أمام قوات الحملة الفرنسية وكانت من أفضل نساء المحروسة. ومع هذا لا يمكن اعتبار سبيل أم عباس ونفيسة البيضاء أشهر الأسبلة التى أوقفها النساء فهناك أمثلة أخرى مثل سبيل عائشة هانم بدرب الجماميز التى أوقفت عليها أوقافا خاصة بها وحدها.

وأما سبيل وكتاب عبد الرحمن كتحدا الشهير الذى بنى عام ١٧٤٢م ويقع عند تقاطع شارع المعز مع شارع التمبكشية حيث مدخل السبيل تصفه موسوعة القاهرة بأنه كأثر له ثلاث وجهات بها ثلاث فتحات بمفردها من الرخام الملون وضع لها شبابيك نحاسية جميلة ، ويعلو السبيل كتاب ذو مظلات وحواجز من الخشب نقشت عليه كتابات باسم المنشئ وتاريخ الإنشاء وبحجرة السبيل رسم للكعبة المشرفة.

وإذا كان سبيل الأمير عبد الرحمن جاويش مستحفظان ابن المرحوم حسن كتحدا قد حصل على كل هذه الشهرة فإن هناك سبيلين لا يمكن تجاوزهما وهما سبيل محمد على بالعقادين وسبيل محمد على بالنحاسين.

ويقع سبيل العقادين على رأس حارة الروم بالفورية وقد أنشئت عام ١٨٢٠م صدقة على روح ابنه طوسون وواجهته نصف دائرية ويتضح فيها التأثير بالفن الأوربي والواجهة مكسوة بالرخام الأبيض. أما الشبائيك فعددها خمسة ومصنوعة من النحاس المصبوب ويعلو كل شبك لوحه رخامية تعلوها زخارف وتغطي السبيل قمة من الخشب المغطى بالواح من الرصاص.

وفى القاهرة العثمانية بلغ عدد الأسبله ما يزيد على الثمانية والستين سبيلا.

يعود الفضل فى وجود هذه الأسبله إلى حب الخير الذى لم يبرح أرض المصريين. كما أن حداثة العهد بالآثار العثمانية قد جعل الكثير من هذه الأسبله مازال ينبض فيه نبض الحياة.

فبرغم أن الكثير منها قد تعرض للنيران بسبب حرق الأوراق والمهمات فيه وبرغم اتساع نفوذ المناطق السكنية على حساب المناطق الأثرية فى أحياء القاهرة فإن الجهود التى بذلها المصريون فى مراعاة هذه الأبنية التاريخية قد جعل الكثير منها يستمر برغم كل المضايقات والتوسعات التى تطرأ وتستحوذ على أجزاء من مساحاتها.

ويعتقد عالم الآثار محمد مصطفى نجيب فى بحثه عن «العمارة العثمانية» أن التكوين المعماري للسبيل فى القاهرة العثمانية لم يختلف كثيرا عن القاهرة المملوكية إذ يتكون من ثلاث طبقات الأولى الصهريج وهو فى باطن الأرض لتخزين المياه.

والطبقة الثانية أعلى من مستوى سطح الأرض بها المزملة ويتصدرها
سلسبيل يقوم بتوزيع المياه على أحواض الشبابيك.
والطبقة الثالثة عملت كمدرسة أولية (كتاب) لتعليم الأولاد القراءة
والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم. (١٦)
وما زال الكثير يمكن أن يروى عن الأسبلة المصرية... فمازلنا
عطشى، وعطشان يا صبايا دلونى على السبيل... كلمات كان المصريون
يتغنون بها ولم يكن فى الأمر غموض فقد كانوا يقصدون أسبلة بعينها
عندما كانوا يغنون فى الماضى البعيد، وبعدها أصبحت هذه الأغنية
الشعبية مصدرا لإلهام المصريين فى ثورة ١٩١٩م التى تعتبر من أهم
ثورات مصر الحديثة التى كانت تبحث هى الأخرى عن «سبيل»
الاستقلال بأرض مصر.



حكاية وراء مدرسة

أحياء القاهرة التاريخية.. لاتزال هناك أكثر من مدرسة هجرت في فلم يعد بها طالب علم أو مدرس أو حتى من يحمل أمنيات خاصة بحضور درس داخل هذه الجدران العالية فإذا استوقفت أحد المارة وسألته لمن هذه الجدران لأجابه إنها لملك أو أمير اسمه بيبرس أو برقوق أو السلطان حسن.

وإن كثيرا من الخلق كانوا يتعلمون بها في الزمن الماضي ، ولكنك إذا سألت عن سبب هجرانها والتزامها الصمت طوال هذه السنوات لن تجد إجابة... لأنها باختصار قصص تحتاج إلى قراءات خاصة.

فمنذ رفع الله تعالى قدر العلم في أول سورة نزلت على رسوله ﷺ بأمر «اقرأ» والعلم حاجة شديدة لكل مؤمن. وقد وجد في نهاية العصر العباسي أن المدارس صارت ضرورة فأنشئت في مدينة نيسابور الفارسية أول مدرسة.

فنظام الملك وزير السلطان آلب أرسلان ومن بعده السلطان ملك شاه هو الذي اقتنع بفكرة وجود مدرسة وكان يقصد بها إرساء قواعد المذهب السني في مواجهة المذهب الشيعي.

ويقال إنه كانت هناك أربع مدارس في نيسابور في عهد السلطان محمود الغزنوي.

وأما فى مصر فقد ولدت على أيدى صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله بقدر ما أنقذ الإسلام والمسلمين. وإن كان بعض العلماء قد أكدوا وجود مدرسة بالقاهرة وأخرى بالإسكندرية قبل هذا بزمن.

إلا أن صلاح الدين جاء بمدرستين أولاهما الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص وخصصت للمذهب الشافعى. والثانية القمحية وخصصت للمذهب المالكى بل وأوقف عليها أرضا بالفيوم يزرع فيها قمحا ومن بعدهما استكمل إنشاء مدارس أخرى.

ومن المعتقد أن الدولة الفاطمية احتفظت بالمسجد كمكان ومعهد للتعليم ولهذا كان للأزهر الشريف دوره كمركز للتعليم منذ سنوات أصعب من أن تعد.

فالفاطميون كانت لديهم طريقةتهم الخاصة فى التعامل مع العلم الذى كان غالبا ما ينصب على الدعوة ولهذا كان الأزهر الشريف هو خير من يحمل رسالتهم.

وبانتهاء الدولة الفاطمية كان عليه أن يترك مكانته لغيره حتى جاء السلطان المملوكى الظاهر بيبرس فأقر للأزهر مركزه الذى درست فيه الكثير من العلوم التى كانت ملء السمع والبصر وقتها مثل الطب والفقه والتوحيد. وهو ما يعنى أن الأزهر الشريف كمعهد علمى حصل على هذا الوضع مع مرور الزمن.

حكاية كل يوم:

أما عن نمط الحياة اليومية داخل هذه المدارس فقد كان يغلب عليه طابع الجدية. ويحكى د. سعيد عاشور في «تاريخ وآثار مصر الإسلامية» إنه كان يلحق بهذه المدارس مساكن للطلبة والمدرسين.

وكان يراعى في تخطيطها وجود سبيل ماء ومكتب لتعليم الأيتام السور المباركة للقرآن الكريم. وقد جرت العادة أن ينزل السلطان بنفسه من القلعة لافتتاح المدرسة. وهى مناسبة كانت تعطى الناس الفرصة فى الحصول على اللحوم والفاكهة والحلوى وملء القدور بشراب الليمون الذى كان غالبا ما تمتلئ به فسقية المدرسة وكانهم فى أحد أيام شهر رمضان الكريم.

وعلى الرغم من طرافة هذا التعبير عن الفرح والابتهاج فإن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد لأن السلطان غالبا ما يعين للمدرسة من يقوم بشئونها.

وأما الدروس فكانت تلقى على الطلبة وكانوا يتناقشون مع مدرسيهم فيما يلقي عليهم من علم.

وكان هناك المعيد الذى يعيد على أسمع الطلبة ما قيل فى الدرس وكان يشرح لهم بالإضافة إلى هذا ما يصعب عليهم فهمه. وقد ترك المجال مفتوحا أمام الطلبة ليختاروا ما يدرسون.

وقد ساعدهم على هذا وجود خزانة للكتب يقوم عليها خازن يقودهم للمعرفة الحقيقية.

وإذا كان للخازن مكانة فما بالنّا بمكانة المدرس الذى كان يملك
وضعا خاصا وكان يحصل على راتب شهري إلى جانب ما قرر له من
طعام. وكذلك الأمر بالنسبة للطلبة وإن كان هناك اختلاف فى منح كل
منهم نصيبه. (١٧)

وتبقى أغرب الحكايات وأجملها هى التى تتعلق بمدرسة السلطان
حسن التى مازالت تحتل موقعها فى ميدان صلاح الدين تجّاه القلعة.
أما جدرانها فهى أعلى جدران يمكن أن تجدها فى مدرسة. فهى
كما وصفها د/ ثروت عكاشة فى «القيم الجمالية للعمارة الإسلامية» ذات
قيمة فنية عالية. ولقد ساد فى أوروبا منذ عصر النهضة أن العمارة ذات
القيمة الفنية العالية هى تلك التى تجمع بين الضخامة والاتساق والوحدة
الزخرفية، وفى كثير من الأحيان تضاف إليها الرصانة والجلال.
ولا شك أن ضخامة البناء فى العمارة الإسلامية كانت غنصرا شائعا
فيها. فجامع السلطان حسن ومدرسته يهول الناظر لفرط ضخامته. حتى
كان السلطان حسن نفسه يفاخر بأن إيوان مدرسته يفوق عقد «المدائن»
ارتفاعا، مما يؤكد الانطباع لدى زائرها بأن ضخامتها لم تأت عفوا.
وتستمد مدرسة السلطان حسن جمالها من رافدين، بنيانها نفسه
وما يحتويه من قيم معمارية، والمقياس الإنسانى.
إنها قطعة من الفن المعمارى الجريئ يغنى تأمله عن الإفاضة فى
وصفه. ولعله أكمل أثر خلّقه لنا مصر الإسلامية. وأجدر صرح يمكن
مقارنته بآثار مصر الفرعونية من الدولة القديمة.

يقول عنه المصور أوجين فرومتمان: إنه درة من أنفس ما جادت به
عصور الحضارة العظيمة من مبان، وما أشبه قوله هذا بعبارة السلطان
سليم الأول الشهيرة حين وقع بصره على هذا الجانب من الجامع
الذى أقيمت عليه المدرسة فى مواجهة قلعة صلاح الدين المشرفة على
القاهرة: «لعمري ما هذا البناء إلا قلعة منيعة».

. وما أصدق جاستون فييت حين وقف فى نفس الموقع وأخذ يردد وهو
ينقل البصر بين قلعة محمد على ومدرسة السلطان حسن: «إن من يتأمل
البناءين تبدو القلعة فى عينه جاثمة تستعد للوثوب والانقضاض، على
حين تبدو المدرسة هادئة سامقة متعالية ترنو للقلعة المتحدية فى
شموخ الوثائق دون مبالاة».

إننا لا نملك تجاه هذا الأثر الفريد إلا أن نحس أننا نحيا سيمفونية
كاملة، اشترك فيها الأوركسترا بكافة عناصره فى عناية ودقة بالغتين.
وبإحساس مرهف مدرك للفروق مهما دق شأنها.

فليست هذه التحفة الموسيقية مجرد تألف بين عدد محدود من
النغمات أو ربط بين مجموعة محدودة من الألحان فحسب، بل إنها
شئ يفوق ذلك كله، وبفضل جاذبية التوافق الهارمونى وسحر التوزيع
الأوركستراالى يرتفع العمل ككل واحد إلى ذروة التعبير الفنى.

فقد عرف المعمارى كيف ينقل تأثيره إلى أعماق النفس بإخضاع
العناصر الزخرفية للمفهوم المعمارى ككل بحيث تصبح خادمة له
ساعية بين يديه. (١٨)

والواقع إن هذه السيمفونية الجميلة كانت للسلطان حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون إن حياته نفسها لغزا. فقد تولى حكم مصر لفترتين أولاهما تزيد على الثلاث سنوات وثانيتها تزيد على الست سنوات. وفى عصره ازداد نفوذ المماليك الجراكسة فقرّر أن يبني هذه المدرسة على الرغم من الأوضاع السياسية القلقة ليتفوق إيوانها على إيوان كسرى. وليبرز الضخامة مع الرقة فى فن الحفر على الحجر وبراعة وتميز أعمال الرخام.

وتعتبر كسوة مداخل المدرسة الأربعة - كما تقول كتب العمارة - من الصحن وأعتاب الأبواب أكبر دليل على دقة أعمال النجارة الإسلامية حيث إن تطعيمها كان مجسما ومثلا رائعا لأجمل الأبواب المكسوة بالنحاس.

وقد روى عنها إنها لم تكن مجرد مدرسة عادية فقد لعبت أدوارا كثيرة، وخاصة إن الناس قد تعودوا فى عهد المماليك أن يصعدوا إلى المنارة ويرموا القلعة بالسهم. ولهذا قرر السلطان برقوق أن يهدم السلم المؤدى إلى المنارتين. فكان المؤذن يرفع الأذان من باب المدرسة حتى جاء من يصلح هذا السلم.

ومدرسة السلطان حسن كان ينظر إليها بشكل خاص على أنها تحفة لم يعرف المصريون مثلها. وفى تاريخ العمارة الإسلامية هناك أساطير تحكى عن مساجد وخانقاوات وأسبلة ومدارس ولكن لا يوجد أسطورة يمكن أن تحل محل هذه التحفة الرائعة.

فهذه المدرسة قد خلدت اسم مؤسسها برغم أن أعماله العسكرية وأسلوب حكمه لبر مصر لم يكونا ليرشحانه لهذه المكانة. فقد كان ممن تولوا الحكم صغارا حتى إنه لم يكن تجاوز الثالثة عشرة من العمر عندما وجد سدة الحكم تسعى إليه راغمة.

وبالطبع وجد إن هناك الكثير من الطيور الجارحة تنتظره على عتبات عرشه لتتقاسم معه حكم مصر. ويذكر التاريخ إن منهم يلبغا روس ومنجك اليوسفى وشيخو العمرى وأرغون شاه الإسماعيلي.

توليفة من كل صوب وحذب تجتمع تحت مظلة الحكم المملوكى الذى سمح لكل الأطراف المتنافرة والمتعددة الثقافات أن تجتمع كلها تحت راية حربية واحدة.

فكان على السلطان حسن - الذى عرف به بين المقربين باسم قمارى - أن يسمح بتداول السلطة بين هؤلاء المماليك وأن يمنح كل منهم قطعة من الفطيرة المصرية حتى اشتد عوده وذهب يبحث عن أكثرهم خطرا لقتله أو الإطاحة به حتى تستقر له البلاد.

إلا أن هذا الاستقرار وعلى عادة عصره لم يكن إلا استقرارا مؤقتا قطعه استيلاء الأمير طاز على العرش. والمثير فى الأمر أن السلطان حسن لم يكن على عادة من قبله إذا انسحب منه بسلطانة كره الدنيا وزهد فى كل شىء، وأصبح يفكر فى أن حياته وحياة من حوله ليست إلا جزءا من هذا العرش الذى فقدته فى يوم وليلة، فعلى العكس من هذا، اتجه السلطان حسن فى سجنه إلى أن يقرأ ويكتب ويحصل

العلم الذى جعل هذه الدنيا فى عينيه واسعة حتى ولو ضاقت عليه أبواب السجان فانخرط فى سلك العلم حتى أتاه جواب الأمير شيخو سريعا بعزل السلطان الجديد وإعادته إلى العرش.

ربما يعتقد من يقرأ أن ما حدث مجرد خطب طارئ إلا أن السلطان حسن كان فى حياته القصيرة أبعد ما يكون عن التوفيق فما لبث أن ثار عليه بعض مماليكه المقربين الذين كان قد بدأ معهم رحلة الحكم. ومرة أخرى يوقع به أحد مماليكه وهو يلبغا ليختفى السلطان وإن كان الاختفاء هذه المرة كان الثانى والأخير. فحتى فى تلك الأيام كانت المعجزة تحدث مرة وبالتأكيد لا تحدث مرة أخرى.

وبرغم هذا تعتبر هذه المدرسة هى الأفخم فى التاريخ المصرى للإسلام إن صح التعبير. فالوسطية والاعتدال الدينى قد فتحا الباب لتدريس المذاهب الأربعة الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية وبنفس درجة القبول بين المصريين.

وهناك معالم رئيسية فى هذه المدرسة، وهى القبة الضريحية التى أراد السلطان حسن برغم سنوات شبابه البكر أن يعدها لتكون مثواه الأخير وكأنه كان يدرك أو يشعر بشكل لا يقبل الشك أن أيامه فى هذه الدنيا بأسرها معدودة ولهذا أقام قبة ضريحية واضحة المعالم ومغسلا كان قد أسس ليتناسب مع الحياة المصرية. فكثيرا ما كان يهاجم وباء الطاعون الأراضى المصرية ويحصد أرواح المئات من أهل البلاد.

وبشهادة علماء الآثار توجد أربعة إيوانات للمدرسة. أولها إيوان القبلة من الناحية الجنوبية الشرقية ويطل عليه بعقد نصف دائرى ضخم يعد أكبر عقد لإيوان فى العمارة الإسلامية قاطبة ويضم هذا الإيوان أسمى آيات الفن الإسلامى عامة. فجدرانه مغشاة بالرخام والأحجار الفاخرة الملونة وبدائرة إطار جصى به كتابات كوفية مورقة لسورة الفتح ويعد واحدا من أجمل ما أبدعته يد الفنان المسلم فى عمارة مصر الإسلامية.

وفى الجانبين الشمالى والجنوبى لجدار القبلة بابان مكفتان بالذهب الخالص يؤديان إلى القبة الضريحية.

أما الإيوانات الثلاثة الأخرى لهذه المدرسة فتجاور كل منها مدرسة من المدارس المذهبية المعروفة. فتجاور الإيوان الغربى مدرسة الحنابلة والإيوان الشمالى مدرسة المالكية وعلى جدرانها كتابات كوفية نصها بعد البسملة قوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهْمُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج آية: ٤١].
وتجاور الإيوان الجنوبى مدرسة الحنفية وهى من أكبر مدارس المنشأة على الإطلاق. وتكون كل مدرسة من هذه المدارس وحدة معمارية كاملة ومستقلة تشتمل على صحن تتوسطه فسقية، بالإضافة إلى إيوان وثلاثة طوابق تضم غرفا للطلبة والدرسين، ويطل بعضها على صحن المدرسة وبعضها الآخر على الواجهات الخارجية. (١٩)

ولا يتوقف الكلام عند هذا الحد، فالقبة الضريحية كانت أكثر ما تعرض للاضطهاد.

فقد كانت القبة أكثر ما تعرض لضرب المدافع والسهام المملوكية. فقد اتسع زمن المماليك في مصر حتى شهد وجود السيف والرمح والسهم متزاملا مع المدافع الأحداث زمنا.

وبرغم كل هذا التحامل والجفاء الذي تحمله هذا الأثر الفريد فإنه لم يعدم من يراف بحاله.

وهكذا أصبحت هناك قبة جديدة برعاية حسين أغا الخازندار وقد كتب عليها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٩٣].

وتستمر مدرسة السلطان حسن ثابتة برغم السنوات والحروب وتغير الوجوه والحياة.

تستمر لتشهد مرور الرحلات الجوية التي تحلق فوق رأسها ومواكب سيارات الأجرة والملاكي والأتوبيسات تدور حولها.

تستمر لتشهد مع أهل البلد أياما حلوة وصعبة وتنجح برغم كل الظروف في أن تحتفظ بلقب أفضل منشأة إسلامية مملوكية تتفوق على إيوان كسرى، ولا أحد يعرف تحديدا لماذا عاشت مدرسة السلطان حسن كل هذا الزمن لتسمع فيها زغاريد الأفراح من جانب بعض البسطاء الذين يعيشون اليوم في مصر المحروسة ولا يجدون مأوى لأفراحهم لقلة المال

والزواد ، فيكتفوا بالاحتفال بعقد القران داخل هذا الصرح الضخم الذى لن يطالبهم بالأموال الطائلة التى تنفق من أجل ليلة واحدة هى ليلة العمر. ولكن كيف كان كل هذا الفن الجميل؟ فهذا الفن منسوب فى الأصل للسلطان حسن الذى صعد إلى عرش مصر مرتين ولم يستطع خلال فترة حكمه القصيرة والممتلئة بالقلقل والاضطرابات أن تكون له بصمة تذكر. فلو لا هذه المدرسة لما تذكره الناس. فقد نجحت ببساطة هذه القناديل والمشكاوات المذهبة فى أن تسجل اسمه بماء الذهب.

إلا أن أكثر ما يحيرنى وأكثر ما يثير فضولى هى متابعة الآيات القرآنية التى كتبت على جدران هذا الأثر بالإضافة إلى غيره من الآثار الإسلامية. فلنولينك قبلة ترضاها... والذين إن مكناهم فى الأرض... لا إكراه فى الدين. فمن يقرأ هذه الآيات المباركة يعلم أن نصيب صاحب المكان تدل عليه هذه الآيات الكريمة.

فقد ولاه الله هذا المكان ليضم هذه المدرسة صاحبة المذاهب الأربعة ، ومكنه الله تعالى فى الأرض لتكون له منارة تحمل اسمه ويتذكره الناس برغم فوات فرصة الحكم ومرور السنين ولأنه فى النهاية يعلم أنه لا إكراه فى الدين وأن مجتمعه المصرى كان ومازال يسمح بوجود الآخر دون ضرر ولا ضرار.

تنتهى قصة السلطان حسن التى تجعل الحزن يطاردنى عندما أكتب حكايته خاصة إننى أعلم أنه قد اختفى من ساحة الحياة وهو دون الثلاثين وأنه برغم هذا العمر القصير ولد ليكون ملكا ولتكون له قصة فى هذه الحياة ... سبحان الله.

الخانقاوات بيت الدعاء فى الزمن الجميل

إنه فى زمن بعيد بعيد.. كانت الشوارع والطرق فى بر مصر يجب تسكن إذا ما سجد الليل فلا تكاد ترى من حولك إلا خيالاً لظل يتحرك حول ضوء مصباح خافت أو حتى شمعة متواضعة لمن تتجافى جنوبهم عن المضاجع ويقضون ليلتهم فى الصلاة والدعاء.

ولكن الأذن تسمع قبل أن يرتفع صوت المؤذن فى الفجر صوت ذكر خافت فهناك أصوات جميلة تسبح الله تعالى هى الأخرى وتصدر عن مكان قريب من إحدى الخانقاوات.

أما... وماذا تكون هذه الخانقاوات؟ فهذه حكاية تعود بنا إلى زمن نى النون المصرى وابن الفارض والصوفية والمتعبدین.

فى كتاب د. سعاد ماهر «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» تعتقد الكاتبة أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية سوى صحابة الرسول ﷺ إذ لا فضيلة فوقها وقيل لمن أدرك أهل العصر الثانى سعى من صحب الصحابة بالتابعين، وانفرد أهل الصفة المراعون أنفسهم مع الله باسم التصوف واشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة.

وهناك رأى آخر حيث تنسب الصوفية إلى أهل الصفة المنقطعين للعبادة والذين يصطفون في نهاية مسجد الرسول ﷺ أما رأى الثالث فيقول إنه أخذ من كلمة الصفاء أو الصفاء الروحى.. ويختلف الأمر فى التفسير بين الناس كما تشير الكتب إلا أن ما نعتبره فى حكم المؤكد هو أن كلمة الصوفية والخانقاوات قد فسرها الجاحظ وابن بطوطة والمريزى بأنها كلمة فارسية تعنى بيت العبادة والأكثر من هذا أن هذه الخانقاوات ظهرت فى القرن الرابع الهجرى ووصلت إلى قمة مجدها فى القرن السادس الهجرى. (٢٠)

وهناك أكثر من سبب لظهور الصوفية فى هذا الزمن الذى اعتبرت من أهم مظاهره. ولهذا يكتب أحمد بهجت مفسرا ظاهرة التصوف التى انتشرت بين المسلمين فى كتابه: «بحار الحب عند الصوفية» فمن وجهة نظره يرى بهجت أن عصر الرسول ﷺ كان أشد العصور حبا لله تعالى فقد كانت نفس الرسول ﷺ صافية وكانت هناك أعباء نشر الدعوة وكان الجهاد هو رهبانية هذه الأمة الجديدة.

ومرت أيام الله تعالى وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحكم المسلمين بعده أبو بكر الصديق اللين الدمث الذى تحول إلى سيف صارم، حين بدأت مأساة الردة، ثم تلاه عمر بن الخطاب الرجل الشديد الذى تحول إلى رقة الحليم وحكم حكما سيظل مثلا أعلى لنزاهة الحكم البشرى ثم عثمان بن عفان وقتل والمصحف فى يده، ثم على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وقتل على يد ابن ملجم.

واستمرت الفتنة الكبرى وبعدها بتسعة عشر عاما قتل الحسين عليه السلام وأرضاه في كربلاء. ودفعت الأهوال والفتن كثيرا من المسلمين إلى الفرار بدينهم والزهد في الحياة العامة.

ويتوقف أحمد بهجت عند مسئولية علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه ونسبته للصوفية والتصوف. فقد كان في موت علي كرم الله وجهه شيء يثير الانتباه وبسبب عشقه للحق وحبه للإسلام غالى فيه الناس ونسبوا إليه ما لم يقله وتوسعوا فيه.

ويقال إن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام جميعا وأرضاهم قد مقت ما يقال عن جده وقال: «أيها الناس أحبونا حب الإسلام فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا».

وفي القرن الثالث الهجرى ظهرت الكثير من التيارات الفكرية والصحيح أن الإسلام دعوة حضارية ولم يكن الزهد تكتيكا يقصد به ضرب مجموعة من الأغنياء، بل عنصر داخلي من عناصر القيم في هذا الدين. (٢١)

فبهجت في هذا المقطع من كتابه الذى يشبه قصيدة شعر وضعها أحد كبار المتصوفة ينتقل فى يسر تيار الماء المتدفق الذى يشبه ماء النيل السائغ الذى يعد لذة للشاربين ليفسر ظاهرة التصوف بمنطقه الذى يحمل الكثير من قوانين الوسطية المصرية.

فلا يصطدم بأى حائل يجرم هذه الظاهرة أو يحملها فوق ما تحتل. كما أنه فى الوقت نفسه لا يريد إلا أن يكون طوفا بعالم الصوفية دون أن يعطيها صفة التقديس التى يمكن أن يمنحها البعض.

فالصوفية في رأيه حالة خاصة ولدت في ظروف خاصة وقدر لها الاستمرار لأن الظروف التي سمحت لها بالوجود مازالت مستمرة بل مرشحة للاستمرار في عالمنا الإسلامي.

إلا إنه في الوقت نفسه يوجد رأى آخر في تفسير الصوفية للكاتب الأمريكي شمس فريدلاندر في كتابه: «رومى وال دراويش الدوارة» الذى يرى أن معنى الصوفية تعنى بالفارسية عتبة الباب وتعنى بالعربية من يلبس الصوف وتعنى باليونانية الحكمة.

كما أن الصوفية فى أبسط تقدير هى المفتاح لفهم أشعار ومفاهيم شاعر الصوفية الأكبر مولانا جلال الدين الرومى.

وهو ما يعنى أن شمس فريدلاندر الأمريكى الأصل والذى دخل فى الإسلام من باب حب المتصوفة ومن باب حب شعر كبير المتصوفين مولانا جلال الدين الرومى قد التزم منطقاً يعكس العقلية الغربية التى تبحث عن تفسير دقيق للمفردات.

وأما العالم الكبير ورائد علم الاجتماع ابن خلدون فيعتبر أن علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل على سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين من العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة إلى أن نشأ الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى الهجرى وما بعده فسمى القبولون على الله باسم الصوفية أو المتصوفة. (٢٢).

وهكذا تتعدد الآراء إلا إنه يظل الاتفاق على أن الصوفية كانوا في بداية الأمر يرون أن توجههم هذا فرار من الله إلى الله في دنيا اختلفت فيها المعايير والقيم عن ذي قبل واختلطت الأمور حتى إن ما أقره المجتمع الإسلامى واصطلح عليه قد أصبح مجالا للقليل والقال فى جو سياسى غلب عليه الاضطراب والفتن.

ولهذا تكتسب الخانقاوات مكانة خاصة فى العصور الإسلامية اللاحقة التى شهدت العديد من الأهواء والأنواء فصحيح أن الإسلام برغم كل الأزمات كان لايزال ناضجا غضا نافذا فى قلوب الناس. فإن البعض ومنهم هؤلاء الصوفية ذهبوا إلى شىء أكبر من التعامل مع الأمور بصبر مرغم. فقد أراد هؤلاء أن يكون لهم مكانة مختلفة حتى فى المجتمع الذين يحيون فيه.

ومكانتهم كهاريين إلى الله كانت تستلزم منهم أن يعتكفوا بعيدا عن هذه الحياة، وأن يعتزلوا الكثير مما يشغل الناس أملا فى الحصول على شىء أكبر من متاع هذه الدنيا الفانية.

وهكذا ظهرت الخانقاه التى كانت تقوم فى الأساس بإيواء الصوفية والطلبة والغرباء المسلمين وكانت كل الصلوات تؤدى بإيوان خاص بها إلا أن صلاة الجمعة لم تكن تقام فيها.

ويستطرد كتاب «خانقاوات الصوفية فى مصر» فى شرح طبيعة الحياة فى هذه الخانقاوات حيث يوجد شيخ الخانقاه وإمامها وناظر وقفها ومدرسو المذاهب ومعيدوهم والكحال والجرائحى والطبايعى

وخازن الكتب وكاتب الغيبة والشاهد والمؤذن والمزملاتى ومشرف الحمام ومشرف المطبخ وخادم الشيخ وخادم الربعات الشريفة والبواب والفراش وسواق الساقية والوقاد ونحوهم..

وان دل هذا الكم الهائل من الوظائف على شىء فإنما يدل على حجم ما كان فى هذه الخانقاوات من وظائف متنوعة كان كل واحد من أربابها يتقاضى نظير عمله بالخانقاه أجرا نقديا راعى فيه الوقف أن يتناسب مع تراثه المالى ومقامه الاجتماعى ، علاوة على ما كانوا جميعا يشتركون فيه من أجر عينى انحصر فى المأكّل من الخضراوات واللحوم والأرز واللبن والعسل والحلوى ونحوها ، وفى الملابس والصابون وغير ذلك من الأرزاق الوافرة التى كانت توزع عليهم.(٢٣)

وفى مصر المحروسة يذكر أن أولى الخانقاوات كانت خانقاه سعيد السعداء التى أنشأها صلاح الدين الأيوبي وأوقف لها أوقافا .وتعد هذه الخانقاه أحجية تخص فى الأصل الأستاذ عنبر أحد القائمين بالخدمة فى عهد الخليفة المستنصر.

ويبدو أن هذا الرجل قد كان له من الطموح والنفوذ ما جعله يفكر فى أن يصبح شيئا مهما فى هذه الأيام ، إلا إن هذا الطموح كان له قمة فى الوصول إليها ثم حق عليه بعدها الهبوط . وهو المتوقع فى مثل هذه الحكايات المثيرة لتنتهى الحدوتة كلها بقتل صاحبنا عنبر وصلبه على باب زويلة.

فذهب عنبر وطموحه وبقيت الدار التى سكنها من بعده الوزير الصالح طلائع الذى يذكر بعض كتب التاريخ عنه - بينما تشكك أخرى - أنه أراد أن يدفن رأس الإمام الحسين عليه السلام وأرضاه فى مسجد أوقفه لله تعالى، ولكن الخليفة الفاطمى رفض. فمن وجهة نظره لا تدفن الرأس الشريفة إلا فى قصر من قصور القاهرة الزاهرة وقد حدث ما أراد فدفنت فى أحد القصور الفاطمية البهيجة الذى يحتل مكانه المشهد الحسينى الآن. ثم سكن هذه الدار من بعده الوزير شاور، والذى كانت منافسته مع ضرغام أحد أسباب الضعف الداخلى فى هذا الزمن حتى إذا ما جاء زمن صلاح الدين الأيوبي بعد انقضاء عهد الفاطميين فى مصر جعل الدار وقفا للصوفية ولقب شيخها بشيخ الشيوخ.

وبوقف هذه الخانقاه على فقراء الصوفية كما يقول لنا على باشا مبارك فى «الخطط التوفيقية» بدأ زمن آخر منذ عام ٦٥٩هـ. فمن بعدها رتب للصوفية طعاما وبني لهم حماما فى نفس المكان الذى عاش فيه كل هؤلاء الطموحون.

ولهذا توقف على باشا مبارك طويلا أمام موقع هذه المدرسة وذكر إنها توجد تجاه حارة المبيضة من الجمالية على يمنة السالك من شارع الجمالية إلى المشهد الحسينى خلف قرة قول الجمالية قرب جامع بيبرس الجاشنكير. وقد عملها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب خانقاه للصوفية سنة ٥٦٩هـ. وأن بها أربعة ألونة وعدة خلوا للصوفية تحتها قبو دفن فيه بعض صوفيتها. وقد تغيرت بعض مبانيها

الأصلية وجعل بها منبرا وخطبة وهى عامرة إلى القرن ١٩ ، وتعرف بجامع الخانقاه وبسعيد السعداء وخطها يعرف. بخط الجمالية ثم أضاف أنه لما جدد الأمير يلغا السالى الجامع الأقمر ، وعمل له منبرا وأقيمت فيه الجمعة ألزم صوفية هذه الخانقاه أن يصلوا الجمعة به. فلما زالت أيامه تركوا ذلك ولم يعودوا إلى الاجتماع بالجامع الحاكمى أيضا. (٢٤)

وبعدها انفتح الباب لتولد أكثر من خانقاه أمام أكثر من ساكن صوفى يتوق للعيش بها. فبنيت مجموعة من الخانقاوات فى منطقة صحراء المماليك والجمالية والسيدة زينب مثل خانقاه السلطان الأشرف برسباى ، و خانقاه السلطان الناصر فرج بن برقوق فى صحراء الممالك، و خانقاه بيبرس الجاشنكير بشارع الجمالية، و خانقاه سنجر الجاولى بشارع مراسينا بحى السيدة زينب، و خانقاه وقبة شيخو بشارع الصليبة.

وقد اختصت هذه الخانقاوات بالكثير من الفنون الإسلامية الجميلة، وكيف لا يكون هذا وقد شيد معظمها فى العصر المملوكى عصر البناة الكبار وفى زمن كان إنشاء أى منها يعتبر مفاجأة مملوكية للشعب - إن صح التعبير - فكان السلاطين والأمراء يقومون بوقفها وافتتاحها بأنفسهم فى احتفال مهيب.

ونعود إلى التميز المعمارى فنجدها تشتمل على الكثير من آيات التفوق ونترك مساحة الحكى للدكتور عاصم رزق الذى يشرح فى كتابه: «خانقاوات الصوفية فى مصر» كيف أظهر المعماريون تفوقهم

فى تصميم الداخل والخارج والمحراب والأرضية والنقش والكتابة فلم يكن هناك فرق يذكر بين تخطيط المسجد والخانقاه. وقد عمد المعماريون إلى إدماج المآذن بالواجهات على حد قوله بالإضافة إلى تجميل المآذن بالطاقات والكسوات التى كان يستخدم فيها القيشانى.

ويتطور الأمر ويدرس المسلمون بهذه الخانقاوات المذاهب الفقهية ويختص كل خانقاه فى زمن القرن الثامن الهجرى بمذهب. فقد كان فقه الإمام الشافعى يدرس بالخانقاه الجاولية والفقه الحنفى بالخانقاه الجمالية. بينما درست المذاهب الأربعة فى الخانقاه الشيعونية.

ويبقى أن نسأل هل استمر الحال على ما كان عليه فعاش هؤلاء الصوفية من غير قلق على طعام أو مسكن؟

فى الحقيقة إن هذا لم يحدث لأن كل شىء خلقه الله تعالى لابد له من بداية ونهاية أيضا. فقد هجرت هذه الخانقاوات بعد زمن من تغير الدنيا وحلت التكايا محلها فى العصر العثمانى. وإن كانت هذه الوريثة الجديدة اختلفت فى معمارها عن سابقتها.

فقد أصبح لهذه التكايا صحن به حديقة وفسقية تحيط بها إيوانات وتنظم من حولها قاعات للدراويش على أن يكون هناك مسجد صغير وسبيل بكل تكية.

ومع وجود هذه التكايا اختلف الأمر عما كان. إلا أن الخير ليس له عصر بعينه.

فهذه التكايا قبل أى شىء نجحت فى أن تواصل المهمة الخيرة كما هو الحال فى تكية البكتاشية جنوب قلعة الجبل وهى منحوتة فى جبل المقطم وتكية الهنود المواجهة لمسجد أحمد كتخدا بالقرب من شارع القبانة. ولتختفى بعد هذا بزمان التكايا أيضا وتستمر حركة الحياة برغم كل شىء وليبحث الناس على شىء آخر يوقفونه على الفقراء وليواصلوا الخير الذى بدأه الأجداد. والحكمة فى النهاية تكمن فى حقيقة ألا ننسى ذكر الله. كما يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَرَ ﴿[سورة الرعد الآيات: ٢٨: ٢٩].

فذكر الله تعالى لا يكون فقط على مأدبة طعامنا حين نفطر فى الشهر المبارك، ولا يذكر فقط عند الشدة ليكون لكل منا دعاء عريض. ولهذا فإن فرسان الخير لا يعدمون فى أى زمان ومكان الوسيلة لكى يسجلوا أسماءهم فى سجل الحافظين لدينهم... ولهذا فالأفكار تتعدد وإن كان الهدف فى النهاية واحد.



بيوت وحواديت

قصص قصيرة جدا

بيوت ولدت في بر مصر ويبدو لكل منها حكاية خاصة

بيت السنارى وحكايته الغريبة

مواجهة جامع السيدة زينب... وبالتحديد فى حارة مونج يهدو فى للمارة بيت قديم متوار. هذا البيت هو بيت السنارى الذى يقبع فى نهاية الحارة والذى لايزال أهل حى السيدة المبارك يتذكرون حكاية صاحبه إلى اليوم.

فقبل نهاية القرن الثامن عشر.. وتحديدًا فى عام ١٧٩٤م قرر إبراهيم كتحدا السنارى أن يستقر فى بيت خاص به فى القاهرة الجميلة على عادة كبار التجار فى عصره.

ولأنه تاجر توابل من أهل دنقلة... فقد أراد لهذا البيت أن يماثل بيوت الشهبندارات والتجار الذين التقى بهم فى القاهرة.

وكيف لا يكون له دار تدل عليه وهو القريب إلى قلب مراد بك المملوكى حاكم مصر الفعلى فى هذا الزمن.

وبالفعل ومن هذا المنطلق.. يهدأ السنارى فى تنفيذ حلمه الذى اعتقد أنه سينسيه سنوات الشقاء التى مر بها والتى حاول فى أثناءها أن يتكسب قوت يومه ولو بمهن متواضعة للغاية أخذت من رصيده النفسى أكثر مما أعطت.

كما أنه فى هذا الزمن الذى شهد أقول دولة الممالىك لم يكن هناك شىء واحد أو شخص واحد يشعر بالاستقرار فى مصر.

فقد تخلى الممالىك عن دورهم الحربى منذ زمن وعاشوا فى البيوت المصرية يحكمونها على طريقتهم.

فقليل منهم من شعر بالانتماء إلى هذه الأرض وكثير منهم من تجمد ورضى لحياته بنمط رتيب فأغلق على مصر وعلى طموحه الحربى الأبواب فى وقت كان العالم يتغير فيه وأوربا تخطو بل تركض إلى الأمام.

والسنارى كغيره ممن يعتقدون أن الحياة لابد أن تعطىهم ما يتمنون إذا نجحوا فى طرق أبواب السلطان وإيجاد ملاذ إلى جانبه.

فالمهم مرضاة مراد بك وحاشيته لتتحقق كل الأمنيات والذى كان هذا البيت واحدا منها.

وأخيرا ينجح السنارى فى بناء هذا البيت الفخم ويدخل أخيرا داره ويغلق أبوابه ليأتنس بدفء الحوائط التى ربما تنسيه أيام الشقاء إلا أن الأمل على ما يبدو ظل أملا لا يدرك.

فالبيت الذى يعد تحفة للناظرين والذى وصفه لى وحدى عباس مفتش الآثار بالمنطقة عند زيارته له يتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به معظم غرف وقاعات المنزل، ويتوصل إليه بواسطة المدخل الذى يطل على حارة مונج ويليه ممر منكسر لنصل إلى الصحن الأوسط المكشوف ومنه إلى المقعد الصيفى الذى يعلوه تختبوش.

ومعظم الأجزاء المهمة فى البيت واضحة للزائر مثل قاعة الاحتفالات الشتوية التى يعلوها ملقف الهواء وهى حيلة معمارية يلجأ إليها المعمارىون المصريون للاحتفاظ بالهواء المنعش فى الليل وأول النهار داخل البيت للتخفف من وطأة الحر الشديد كخزان للترطيب الذى يعد من أكبر ملاقف الهواء فى منازل القاهرة الإسلامية ويوجد فى الدور الأول ويجاوره أيضا حمام على الطراز الإسلامى. أما بقية الغرف فتعتبر غرف خدمات ومرافق.

والبيت بمجمله لا يوصف فقط بأنه تحفة أثرية ولكنه فيما يبدو قد توفرت له كل الظروف لكى يكون تعبيرا عن لحظة فرح واستقرار لسكانه الذى أراد لهذا البيت أن يكون ملجأ له من ذكريات الماضى المرة. وتحدث المفاجأة فبعد زمن قصير وأيام أهون من أن تعد يدخل نابليون بر مصر غازيا لأراضيها وهو ما أصاب البلاد بحالة من الخوف والتأزم لم يعيشها المصريون من قبل.

فينتشر الرعب فى البلاد ويلجأ الجميع إلى ديارهم التى أصبحت رمزا لأرضهم المصرية وإن كانوا مع هذا لايتنازلون عن مقاومة هذا الغازى الجديد والذى جاء على غير موعد.

إلا إن نابليون وأمام هذا الرفض الشديد لوجوده لا يكتفى بغزو المدن المصرية فيقرر جيشه أن يغزو حتى البيوت الجميلة الآمنة ومنها بيت السنارى بالسيدة زينب.

فيستولى الفرنسيون على المكان ويرغمون السنارى على الخروج من بيته ليسكن العلماء المصاحبون للحملة البيت وخاصة العالم مونج الذى اختار أن تبدأ فيه التجارب والأبحاث التى ظهرت ودونت كملاحظات علمية فى موسوعة وصف مصر.

وهكذا وبين يوم وليلة يجد الناس هذا البيت قد أصبح مقرا للتجمع العلمى بعد أن يستقر فيه العالم مونج بهذه الكيفية، ويدخل البيت التاريخ بوجود هذا العالم الذى كان، وكما أشار كريستوفر هيرولد مؤلف كتاب «بونابرت فى مصر»، من أعظم الشخصيات تعددا فى الكفاءات فى تاريخ العلم.

فقد ظهرت موهبته الخارقة فى الرياضيات وأنشأ فرعا جديدا فيها وهو الهندسة الوصفية. وعمل فى لجنة الموازين والمقاييس والاستاتيكا الجوية واشترك فى تطوير البالون فى الجو وهو ما كتب عنه الجبرتى كثيرا فى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» أما اللجنة العلمية فكما تؤكد المصادر الرسمية أن لجنة العلوم والفنون كانت مؤلفة من ١٦٧ شخصا ترك اثنان منهم فى مالطة. (٢٥)

ونعود إلى السنارى الذى اعتبر ما حدث هو امتداد لسوء الحظ والتعثر الذى صادفه فى بداية حياته خاصة إن بيته كان ضمن ثلاثة بيوت وقع عليها الاختيار لتكون مقرا للمجمع العلمى الذى شهد الكتابات الأولى التى خطها العلماء الذين أصدروا كتاب «وصف مصر» الذى اكتسب موقعا تاريخيا غير مسبوق.

ويشاء الله تعالى أن يقاوم المصريون هذا الغزو الفرنسي ويثبتوا أنهم ليسوا مجرد رعايا لأية دولة تحكمهم وأنهم ليسوا مجرد أناس قد نسوا حضارتهم، ويستيقظون بين فترة وأخرى في شكل إفاقة مؤقتة تصنعها الظروف.

ويذهب المصريون أثناء مقاومتهم للفرنسيين لما هو أبعد من هذا ويثبتون أنهم ينتمون إلى أمة واعدة، ويصمد الرفض المصرى فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية بشكل يرغم الفرنسيين على الجلاء. وتخرج الحملة الفرنسية من عقر دار السنارى ويأتى الزمن الذى يكون لزاما عليه أن يقاتل من أجل استرداد بيته وهو ما يحدث بالفعل.

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ففى العام الذى يشهد رحيل هؤلاء الغرباء عن بيته يشهد أيضا رحيله عن هذه الدنيا تاركا كل شيء وراءه.

فمن عجائب الأقدار أن يرحل السنارى فى نفس العام الذى أصبحت فيه الفرصة سانحة وكأنه بنى هذا البيت المدهش لغيره ولم يكن من نصيبه حتى ولو تصالح مع الدنيا كلها ولم يكتف بمداهنة مراد بك وحده من أجل حلمه الكاذب. ويموت السنارى ونتوقف عند هذا البيت الذى يحمل فى رأبى معانى شديدة المصرية.

فهذا بيت قد بنى فى نهاية الحكم العثمانى ليثبت أن منطق المدنية والمواطنة كانا موجودين فى القاهرة وقد تزينت بطابع مميز فى العمارة منذ وصول الإسلام إليها.

فبالاقتراب من المشهد وكما يحكى د/ ثروت عكاشة نجد أن اختيار

الخلفاء الفاطميين قد وقع على منطقة الجمالية لبناء القصور، وكانت تبني من حولها الدور.

فإذا كانت منازل الفسطاط تتألف من إيوانات تسبقها شرفات تحف بفناء مركزي مكشوف يتيح قدرا من الظل طوال اليوم.. ففي عمارة منازل القاهرة من الطرز المعمارية في بناء المنازل ما استغرق ستة قرون أوسبعة ولكن أول ما يسترعى انتباهنا هو الصحن الذي استخدم في تكييف حرارة الجو. ذلك أن الهواء البارد يهب إلى أدنى مستوى ليلا ثم لا يلبث أن يتسرب إلى الحجرات ويظل محصورا بين جدران الصحن حتى ساعة متأخرة من النهار وكأنه خزان للترطيب. (٢٦)

أما بالنسبة لنظام المياه الجارية فقد كان ببعض الدور مياه ساخنة وباردة مثلما كانت عليه الحال في الحمامات العامة وقد ثبت وجود حمامات بالفعل في منازل عديدة منها بيت السنارى ولعل ما أقول يؤكد الخصوصية واللمسات المصرية وليثبت أن بيت السنارى كان بيتا مرتفع المقام بين البيوت العادية

وفي النهاية نكتفى بهذه القصة الغريبة التي شهدتها بيت السنارى وفي الحى الذى دارت فيه الكثير من القصص والحكايات التى تحكى عن بر مصر.



بيت القصص والمفارقات

نملك فى هذه الحكاية إلا أن نقلب الكف بالكف ونحن نحكى لا عن بعض تفاصيلها. فالحكاية وقعت فى القاهرة العتيقة فى زمن الاحتلال الإنجليزى وأبطالها ليسوا من الفلاحين أو المعممين أو المطربشين. فالبطل وللعجب هو جاير أندرسون الطبيب الإنجليزى الذى جاء إلى مصر المحروسة والتحق بالعمل بالجيش وكان يتمتع بطبيعة مغامرة لا تعرف الاستقرار.

وهذا الرجل اللغز استطاع فى بداية العشرينيات من عمره أن ينهى دراسته للطب بأسرع وقت ممكن حتى وكما يقول يتفرغ للحياة. ولكن هل تحتاج الحياة للتفرغ ولنغمة معينة من التفاهم؟

أعتقد أن السؤال نفسه قد واجه جاير أندرسون بعد سنوات طويلة من العمل وقد اعتزل كل شىء ليجلس خلف مشربيات بيت الكريتلية أجمل بيت فى القاهرة العتيقة.

ونتوقف عند بيت الكريتلية... فالمنزل قديم وهو ابن لقاهرة المعز وجار لمسجد أحمد بن طولون حيث لا يزال للتاريخ عقب وللمساجد شموخ وللمصلين مسك مصرى لا ينسى. إلا أن هذا البيت الأسطورة له عقب خاص يرشح حكايته للاستمرار والتناقل عبر الأجيال.

فكما حكى لى حفيده ثيو: التحق جدى بالجيش المصرى وعمل لسنوات طويلة فى السودان والصحراء الغربية وتونس وليبيا، ولكنه بعد كل هذا قرر أن يعتزل وأن يهب ما تبقى له من عمر لهذا البيت فقد كان معروفا عن جدى حبه للتحف والفنون الإسلامية وعندما طلب أن يسكن فى هذا المكان كان يعرف فى قرارة نفسه أنه سيتركه ذات يوم للحكومة المصرية فأراد أن يترك للمصريين متحفا يحكى عن بلادهم الجميلة.

ويبدو أن القاهرة باحتمالها للقديم والحديث وبتجاور المساجد العتيقة والحارات الشعبية مع المبانى التى تتأثر بالطابع الأوروبى قد أثرت فى نفس أندرسون منذ عام ١٩٠٦م نفس عام وصوله إلى القاهرة وهو ما خطف قلبه وعقله.

وإن كان للماضى وكما يبدو نصيب أكبر من الحاضر الذى عاشه. فقد وقع فى هوى القاهرة العتيقة ولهذا لم يكن لفندق شبرد الذى كان أول مكان سكنه مكانة كبيرة لديه. فلم يعرف فى شبرد معنى الاستقرار برغم احتفاظه بتفاصيل كلاسيكية أوروبية كانت من الممكن أن تواسيه فى بعده عن وطنه.

فغرامه بتل يشكر يبدو للبعض وحتى أهالى حى الخليفة أحيانا غير مبرر فالأمر أكبر من ضخامة بناء مسجد ابن طولون وأكبر من الإطلالة المصرية التى عرفها فى وجه فتاة كانت تحتفظ بابتسامة وكأنها أطلقتها تحية لنور الشمس المصرية وهى تطل من شرفة منزلها.

وبرغم أن المشهد كان فى البداية يعتبر مجرد مشهد عابر فى عيني أندرسون فإنه قد كتب له الاستقرار داخل وجدانه حتى إنه بعد تسعة

وعشرين عاما من زيارته الأولى للمكان ومن اعتزاله كل مهامه العسكرية عاد يبحث عن منزل في نفس المكان المجاور لمسجد ابن طولون. أما قصص الدرويش والكلمة للحفيد ثيو الذى جاء إلى مصر ليشارك في ترميمات هذا البيت الذى كان يستمتع جدى إلى صوته العذب وهو يقرأ القرآن الكريم، وما حكاة عن عمره الطويل الذى امتد إلى الثمانين وجلسه بجانب مقام سيدى هارون المجاور وسلوك واعتقادات الناس لهى جميعها أحلام وروئى وتفاسير شعبية لأهل المكان الذين عاشوا فيه.

وبيت الكريتلية يماثل كل البيوت الأخرى فى بر مصر حيث عاش به العديد من البشر. فقد جاء كل واحد منهم بحكايته وبصمته وكأنما قرر وبطريقة لا شعورية أن يعطى المكان حياة أخرى تناسبه هو شخصا إلا إنه فى الحقيقة لا يصبح أكثر من زائر للمكان الذى يأبى على الذوبان فى كيانات أخرى.. وكان هذا المكان هو مصر.

ولأننا لا نريد أن نعطى أحكاما مسبقة فالواقع يقر أنه عندما جاء جاير أندرسون ليستريح استراحة المعتزل بعد سنوات العمل فى الطب والجيش لم يستطع إلا أن يهب ما تبقى من سنوات عمره لهذا البيت وبيت الكريتلية كما تقول المعلومة التاريخية قد بنى فى القرن السادس عشر وهو ليس منزلا واحدا بل منزلين.

وقد ظهر أول البيتين فى هذه الدنيا فى نهاية القرن السادس عشر. وأما البيت الآخر الذى انضم إليه فيما بعد فقد بنى فى بداية القرن

السابع عشر فى عصر الولاة العثمانين ويقال إن أجيالا من البشر سكنته وإنهم كانوا يعشقون المحروسة وإلا لما عاشوا بها، وتذكر بعض الكتب أسماء مثل آمنة بنت سالم وابن الجزار وسيدة من جزيرة كريت كان لسكنها هذا البيت السبب فى تسميته باسم بيت الكريتلية والذى حرف فيما بعد إلى بيت الكريدلية.

فهذا البيت مثله.. مثل الحلم الجميل الذى يأتى فى الليالى البيضاء مثل فتاة جميلة كأخت القمر تبدو مشغولة البال بطيف الحبيب كل ساعات النهار.. مثل الحكايات الأسطورية التى كان أندرسون يكتبها فى ساعة العصارى من كل يوم مثل كل ما يجعل كل شىء يبدو جميلا ومبهرًا فى بيت الكريتلية.

فهنا تهدأ الروح ونتذكر أحلامنا وانكساراتنا وأن الحياة قصيرة. وأن الله وحده يعلم البداية والنهاية. وأنه لا يمكن الحصول من وراء هذه الحياة سوى على حق الحياة نفسها. فهنا فهم كل من عاش فى هذا البيت أن الحياة ليست سوى حلم قصير ينتهى. ولا دليل أكبر من وجود هذه الجدران من قبل جاير أندرسون.

فهؤلاء جميعا جلسوا فى صحن الدار المكشوفة فى ليالى الصيف المقمرة واستمعوا إلى خرير الماء للسبيل الملحق بالبيت. بل وارتاحوا على مقاعده واستمتعوا وسط نسيمات الهواء بقبض حب وعطف كما عرفوا الكره والوفاء والغدر. وبعضهم كتبت لهم السعادة فى هذه الحياة وبعضهم خرج منها مدحورا بقلب لا يعرف أن الغد يوم آخر ربما أفضل بكثير.

المهم إنها حكايات كثيرة تتعدد بتعدد البشر وتدور بجانب كل هذه المشروبات المتعددة الأشكال والقمریات التي يطل منها نور القمر وسلطان الشمس.

ففى السلامك أو قاعة الرجال يوجد الكثير من الدواليب الفائرة أو الخوارسانات كما يطلق عليها بالفارسية. وهناك الصناديق الخشبية المطعمة بالصدف والأطباق النحاسية ذات المباخر فهنا وعلى هذه المقاعد كانت تناقش أمور السياسة والتجارة فى زمن الطرابيش.

وأما الحرمك فهو على الجانب الآخر يشى بعطر امرأة مرت من المكان. فهذه المشروبات والدواليب المذهبة شاهدة وحتى كرسى العروسة لا تجلس عليه إلا جميلة تريد أن تتزين.

فأدوات الزينة والصناديق هى ملكة المكان. وأما هذا الممر السرى الذى يقع فى جانب الغرفة فهو أسطورة كبيرة فهذا الممر السرى الذى يوجد فى جانب خفى من غرفة الحرمك هو فى الواقع ممر يؤدى إلى الخارج والغرض منه هو الهروب خارج الجدران.

فهذا البيت ربما شيد فى فترة عاصرت عدم الاستقرار فلم يكن هناك بد من وجود ممر خفى للخروج فى حالة وقوع هجوم مباغت على الحرمك، وربما كان هذا الممر جزءاً من معمار البيوت الكبيرة وقتها، ولكن من يا ترى هرب من هذا البيت وإلى أين ذهب؟ وهل عاد حياً أم قتله الأشرار فى طريقه للخلاص بحياته... حكايات وحكايات الله وحده يعلمها.

فمن بين الأساطير أن هذا البيت محروس وأنه قد شهد قصص حب جميلة فاقت قصة روميو وجولييت. فهذا هو الخيال الذى يختلط بالواقع. وأما الواقع فهو يفرض سؤالاً آخر: وهو كيف كان يقضى أندرسون يومه وسط هذه الغرف؟ وهل كانت حياته مجرد انتقال بين السلامك والحرملك أم إنه اختار غرفة بعينها ليسكنها؟ وترى ما هذه الغرفة ولماذا اختارها بالذات؟ ولماذا هذا الاختلاف والتعدد بين غرفة دمشقية وأخرى فارسية وواحدة تركية وأخرى صينية ولماذا يبدو هنا الكل فى واحد؟ وماذا يحدث بين الصباح والمساء؟ فلعلنا نطلق لأنفسنا الخيال ونرى كيف كان يعيش أهل الدار.



القصة الأولى دمشقيات وأخت القمر

يتنفس الصبح ولا تجد الشمس ما هو أروع من الغرفة الدمشقية لكى تتسلل إليها عبر ستائرهما فقد جاءت الشمس لترى هذه الغرفة ولعلها زارتها لتكمل جزءاً من كيائها فهذه الغرفة تشعرنا بأننا فى بر الشام فهنا السرير الصغير الشديد الزخرفة. هنا جدران كسيت بالخشب والنقوش البارزة ذات الألوان الدافئة. وهنا أبيات من الشعر العربى كتبت بماء الذهب فى مدح الرسول الكريم ﷺ :

يا مفخر الرسل الكرام لكونه أضحى الجميع ببعثه مختوما

فهذه غرفة وكما يبدو كانت تسكن من قبل إحدى البيوت الدمشقية القديمة. وهذا التكوين الصغير للغرفة ربما يخص فتاة جميلة لها صفائر طويلة تكتحل بكحل عربى وتعد الأيام فى انتظار الغد. ففى يوم المقابلة الذى تجتمع فيه نساء العائلة تجدها تجلس فى صحن الدار مع بقية النساء وإن كانت تبدو مشغولة البال ذاهلة عن أى طعام وشراب.

وهى لا تعير اهتماما لكل الأطباق الدمشقية التى لا يمكن مقاومتها. فهى على غير حال أهل بيتها الذين يعشقون أطايب الطعام.

فلماذا تبدو بعيدة بخيالها عن البيت الذى يسكنه الجد والجدة
والأب والأم والأخوة؟! ولماذا لا تتحدث كثيرا وهى ورثة الدار التى
تفتحت فى سنوات قليلة وتركت الطفولة إلى الأنوثة؟! كثيرة كثيرة
هى علامات الاستفهام.

إلا أن ما نعرفه يقينا إنها اليوم تسكن هذه الغرفة وغدا ستكون فى
مكان آخر فى بيت زوجها.

وستكون هذه الغرفة الأنيقة أو غرفتها الدمشقية من ضمن رصيد
جهازها عندما تذهب إلى بيت زوجها ولكن كيف ستكون هذه الأيام؟
وهل ستجد السعادة أم أن سوء طالعها سيجمعها بإنسان لا خير فى
الارتباط به؟... الله تعالى وحده مقلب القلوب يعلم.



تركيات وساعة العصارى

ساعة العصارى وكما يحلو لى أن أتصور كان أندرسون يمر فى بمتحف البيت الذى يضم التماثيل الفرعونية والطاسات النحاسية ودوارق الزجاج المصرى ليجلس فى الغرفة التركية المذهبة التى تنتمى إلى الطراز الأوروبى، والتى يمكن أن نرى شبيهة لها فى الكثير من البيوت المصرية فى زمن الجدود والجندات.

فقد تعاطف الفن التركى مع الطراز الأوروبى فشخصية التركى المحاربة كانت تتأثر بالفن الفارسى فى البداية وإن كانت لهم موضوعاتهم الشديدة المحلية إلا أن هذه الشخصية ما لبثت أن تأثرت بالطرز الأوربية واعتبرتها إحدى التفاصيل المحلية الخاصة بها.

المهم إنها غرفة تقبل وجود الآخرين ولا تحمل خصوصية غرفة القراءة أو غرفة الكتابة التى تبدو شديدة الخصوصية فى غرفة القراءة لا مكان للكتابة والعكس صحيح فى غرفة الكتابة حيث لا مجال للقراءة فالمساحات صغيرة ومقدرة لغرض واحد والتنوع مقصود فلا تجتمع القراءة والكتابة فى مكان واحد حتى لا يتسرب الملل إلى رواد الغرفتين.

وأما الغرفة التي تجاورهم فهي غرفة صينية. فلا يستطيع أحد أن يقتلع التأثير الصيني من الفنون الشرقية فالخزف والحريز والإتقان الصيني يفرض نفسه.

فهي حضارة لا تتبدل ولا تترك مكانها لأخريات. فالصين تلزم نفسها بفنّها كما تلتزم مصر بكل التفاصيل الشعبية العبقريّة. والفن الصيني مقبول في أي مكان في الدنيا. فهو صاحب خصوصية شديدة ولا يقبل أن يغزوه فن آخر أو يفرض نفسه على أرض لا تقبل وجوده.



فارسيات والليالي البيضاء

مثل الحلم الجميل فى الليالى البيضاء... مثل كل المنمنمات التى أبدعتها يد بهزاد فنان إيران الأول فى كتب فى روعة الشاهنامه «كتاب الملوك» والتى تتمازج فى فن لتعبر عن مشوار اسمه الحياة تأتى هذه الغرفة الفارسية لتكون الملاذ الأخير لكل من ثقل قلبه بالهموم. فهذه المقاعد والسرير المرتفع لا تصلح إلا لأصحاب المقامات الرفيعة والقامات المرتفعة فى الفن والحب والحياة، وهذا اللون الأحمر الذى يفرض نفسه على المكان فى جراحة هو لون الشمس والنبلاء والحب كما يقول مولانا جلال الدين الرومى أهم شاعر فى تاريخ الصوفية. فربما سكن هذه الغرفة التى استعيرت من أحد بيوت طهران أو أصفهان فنان فارسى هو فى حقيقته من حفظة الجمال والفن والتاريخ فهو صاحب ذاكرة يستعصى عليها فقد أى من تفاصيل كل ما كان، وخيال يسابق الفجر وفراسة مؤمن يحب الخير ويستلهم خطواته ببركة الرسول ﷺ. وهو يتوكل على الله حق توكله، ومن توكل على الله فهو حسبه. فمن النوافذ الفارسية الأصلية يكون الدعاء بقبول خير هذه الدنيا ومحاولة إقناع النفس بقبول المصير.

وسوف تمر الليالى القاتمة. كما يعتقد الإيرانيون إذا ما واجهوا
أزمات. ليأتى يوم فى روعة الثلوج يلمس فيه أرواحنا هواء كالذى
يمر بحدائق شيراز. فبحسابات النفس الطويل لابد للشجرة أن تقاوم
قشعريرة الشتاء لأنه حتما سيأتى الربيع.
فالألم جزء من الحياة كما يقول شاعر الفارسية الكبير سعدى
الشيرازى:

إن كنت للناس لم تتألم فكيف سميت نفسك بآدم

وأغلق أبواب الغرفة الفارسية وأترك الأحلام والأساطير عندما
أسمع وقع أقدام قريبة منى. ربما كان صوت وقع أقدام أندرسون أو آمنة
بنت سالم أو أحد أفراد العائلة الكريتلية أو الفتاة الدمشقية أو الفتى
الفارسى. ولكن لا يهم فهم جميعا يعيشون هنا الكل فى واحد كما يقول
النشيد المصرى القديم... نشيد الخروج إلى النهار.



بيت الست وسيلة يتجمل

بيتها .. بيت الست وسيلة الذى يعيش بيننا إلى الآن فى حى الأزهر ناحية زقاق العنبة عند تفرعه من حارة الداويداوى بالقرب من منزلى الهوارى وزينب خاتون هو نفسه البيت الإسلامى المصرى الجميل الذى يصر على الحياة برغم الكثير من التجاهل الذى لقيه لسنوات طويلة من حياته.

والغريب - والعهدة على الراوى - أن البيت لم يكن فى الأصل بيت الست وسيلة خاتون أو وسيلة خاتون بنت عبد الله البيضاء معتوقة الست عديلة هانم زوجة الأمير سليمان أغا السلحدار فى عهد الوالى العثمانى عمر باشا... ولكنها فيما يبدو كانت آخر من ملكه وعاش فيه قبل منتصف القرن التاسع عشر فى زمن عرفته مصر بزمن واليها محمد على باشا الكبير.

فالبيت فى الأصل قد بنى قبلها بسنوات طويلة وظهرت أول حجة للبيت لتشير إلى أنه كان ملكا للحاج عبد الحق وأخيه لطفى أولاد المرحوم الكنانى. فبحسابات التاريخ أنشئ هذا البيت فى نهاية القرن السابع عشر وتحديدًا فى عام ١٦٦٣م إلا أنه ظل يحمل اسم وسيلة مثله مثل البيوت الإسلامية فى القاهرة التى مازالت تحمل أسماء نساء.

وإن كان هذا البيت كما يقول د. عبد الله كامل موسى أستاذ الآثار الإسلامية له تميزه الذى جعله موضع اهتمام لجنة حفظ الآثار العربية

من قبل كما تناوله الباحثون الفرنسيون فى كتاب يحمل اسم «ثلاثة قصور من العصر العثمانى فى القاهرة» الذى صحح بعض المعلومات الخاصة بعمارة المنزل حيث إنه فى الأصل نموذج لتكوين سكنى بسيط.

وكعادة البيوت الإسلامية فى مصر المحروسة تبدو المداخل مصممة بشكل يستطيع من بالداخل أن يرى القادم وفى الوقت نفسه لا يستطيع أحد أن يتلصص عما يحدث فى البيت أو يجرح حركة النساء، وعند دخولنا إلى البيت نقابل السلامك وهو مكان مخصص لاستقبال الرجال وعلى مدخله توجد كلمة «يا الله» وأسفلها نقش مهدم كتب عليه «يا محمد».

على أبواب وسيلة؛

يبدو أن المدخل الرئيسى كان هو المشكلة الأولى لهذا البيت الذى انخفض عن مستوى الشارع بأكثر من مترين نتيجة الردم والرصف. كما أن وجود شبكات صرف متهاكة وارتفاع منسوب المياه الجوفية قد أدى لتسرب مياه على الحوائط.

فمشكلة بيت وسيلة هى تلك المعاناة الخاصة التى تعرفها بقية البيوت الباقية فى القاهرة.

وإن كانت المعضلة الحقيقية لا تتوقف عند هذا الحد فالبيت قد ظل مسكونا بالناس إلى بداية الثمانينيات وقد استخدمه البعض كممنطقة إيواء لمن تهدمت منازلهم.

وباستثناء المقعد الصيفى الذى بقى كجزء سليم فى البيت كانت هناك أجزاء داخلية منهارة أصبحت مقلبا لمهمات العمارات المجاورة...! إلا إنه أثناء عملية الترميم اكتشفت بعض الأشياء التى لم تكن معروفة ومنها الحوائط الموجودة فى المقعد الصيفى السلامك التى يغلب عليها اللون الأزرق وهو اللون الأصلى على غير عادة البيوت.

أما مفاجأة البيت الكبرى فهى وجود نماذج نادرة من اللوحات الزيتية داخل البيت تعبر عن مناظر للأماكن المقدسة بالحجاز حيث يوجد بالجزء الشمالى للقاعة منظر لمسجد الرسول ﷺ مجتمعاً مع مناظر أخرى لمنازل المدينة المنورة.

أما اللوحة الأخرى فتتمثل منظر الكعبة المشرفة والحرم المكى ومنازل مكة التى تحيط بالحرم بشرفاتها الصغيرة.

فهناك صدق للفن الذى أكدته العثمانيون وإن كان يبدو أن الفنان الذى ابتدعها صاحب رؤى مصرية.

فهذه اللوحات التى تتيمن ببيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة إنما تكشف مدى حب أهل مصر لساكنى هاتين المدينتين.

وقد ظلت هذه اللوحات محفوظة إلى أن استعين بخبراء استطاعوا خلال ستة أشهر من العمل إرجاع اللوحات إلى حالتها الأصلية وإلى مكانها بالحرم.

وبالرجوع إلى حجة البيت والصور والرسومات التى التقطت ورسمت للبيت منذ بداية القرن العشرين. وبالمقارنة ببيوت العصر العثمانى

أمكن التعرف إلى الكثير من تفاصيل البيت، وجمال كل ركن فيه وحتى الأبيات التي كتبت بمقاربة الأسقف من بردة البوصيري التي كانت موجودة في كثير من البيوت المصرية كنوع من البركة والدعاء ومدح في الرسول ﷺ وهي تكشف إلى حد كبير مدى تدين المصريين.

فقد كان المصريون يبحثون عن الجمال وقد أضافوا لمساته إلى بيوتهم في كل عصر، ولاننسى أن البيت يقع في قلب القاهرة التاريخية. كما أن حالته قد بلغت من الخطورة مبلغا كبيرا وخاصة في وجود أجزاء مفصولة ومنها جزء الحمام القديم الذي يعتبر من أهم الأجزاء النادرة في هذا البيت.

والبيت في الأساس له واجهتان حجريتان إحداهما رئيسية من الناحية الشمالية الشرقية أما الأخرى فهي من الناحية الجنوبية الشرقية تضم المدخل الحال للبيت الذي يبدو بعيدا عن مواضع الحياة في الشارع بالتزامه هذا الركن الهادئ.

وفي فناء المنزل يوجد سلم حجري ينتهي إلى مدخل هو في حقيقة الأمر باب تعلوه نافذة، وعلى جانبي المدخل أربع فتحات تفضى إلى حجرتين تعلوهما قاعة لها فتحة دخول من الممر المنكسر الذي يربط بينها وبين المقعد. أما ضلعها الشمالى فيطل على الصحن وقد غطى المقعد برسومات هندسية خشبية أسفله إزار خشبي عليه كتابات نسخية باللون الأبيض على أرضية زرقاء وقد خط عليها قوله تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة آية : ٢٥٥]. (٢٧)

وأما الجدار الغربى فيحمل نصا إنشائيا بتاريخ بناء البيت وينسبه إلى عبد الحق وشقيقه لطفى أولاد المرحوم الكفانى الذين لم ينسب إليهم ملكهم للأسف ولكن نسب إلى الست وسيلة التى كانت فيما يبدو أبرز من سكن هذا البيت... والمشكلة التى أعتقد أننا نواجهها عند الحديث عن وسيلة وبيتها أن الكثير من قصص أهل البيت لا يعرفها أحد. فهو بيت بسيط ولكنه فى بر مصر المحروسة التى عرفت الكثير من البشر الذين يتذكروهم إلى الآن الحجر.

فمشكلة وسيلة وأخواتها أنها بيوت مصرية وأن مصر يفيض فيها كل شبر بالخاص والعام... فلسنا فى الحقيقة فى حاجة إلى مقهى ودف ونأى وجمهور من كل حذب وصوب، لكى نحكى عن أى من القصص المصرية ولكننا فقط أردنا أن نتوقف عند بعض الحكايات التى ضاعت داخل جدران هذه البيوت.



مقياس لوفاء

موعداً فى جزيرة الروضة... جزيرة السفن والقصور التى شهدت ترف السلطان الغورى ومراد بك وحسن باشا المنسترلى منذ مئات السنين... حيث كان النيل وفى نهاية صيف كل عام لا ينسى أن يوفى بوعده مع المصريين.. وكان مقياس الروضة الذى يعد ثانى أقدم الآثار الإسلامية الموجودة فى القاهرة هو المبشر الذى يعلن للناس أن الخير فى طريقه إليهم وأن الوادى العظيم سوف يتمتع بحظه من الزراعة والحياة اللتين قسمهما الله تعالى لهما.

فقد كان هناك ما يشبه العرف بأن وصول منسوب النيل إلى ارتفاع ستة عشرة ذراعاً هو إعلان لوفاء النيل. أما إذا كان أقل انخفاضاً فهذا يعنى أن أيام التحاريق قد امتدت وأن شيئاً من الجفاف سوف يفرض نفسه على بر مصر.

إلا أن الأيام تتغير وتدور دورتها على هذا المقياس صاحب النقوش الزخرفية البديعة بعد وجود السد العالى الذى أصبح الحامى الحقيقى لمصر من أيام التحاريق.. ولهذا نسى الناس هذا المقياس الذى لم يعودوا يتذكرون حتى مكانه بعد كل هذه السنوات!

ونتذكر مع مقياس النيل الكثير من الذكريات المصرية الأصيلة التى يبدوها كمال السيد فى كتابه: «القاهرة أسماء ومسميات» حيث يقول

إن أهل مصر طلبوا من عمرو بن العاص إلقاء بنت بكر في النيل ليتحقق الوفاء فرفض وكتب إلى عمر بن الخطاب الذي أرسل إليه خطاباً يقول فيه: من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد... فإن كنت تجر من قبلك فلا تجر. وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك.

وألقيت في اليم، وجاء الصباح بوفاء النيل وهي قصة معروفة بلا شك للجميع. إلا أن الجديد الذي يذكره المؤلف هو أن الحديث عن النيل قد تكرر في المكاتبات بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص. فقد روى المقرئ أن عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب يقول:

(إن الاستبحار يدعو إلى الاحتكار والاحتكار يدعو إلى غلاء الأسعار. وإن النيل يروى أهل مصر ريا مريحا كاملاً على الست عشرة ذراعاً، وإن النهايتين المخوفتين للظماً أو الاستبحار هما اثنتا عشرة ذراعاً وثمانية عشرة ذراعاً).

فأشار عليهما علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بأن ينشئ مقياساً بحلولان. فأنشئ مقياس صغير ثم بنى المقياس في جزيرة الروضة في خلافة سليمان بن عبد الملك. والعهد على المؤلف وإن كانت بعض الكتب تشير إلى أنه أنشئ في عهد الخليفة المتوكل. (٢٨)

أما الحكايات التي تروى عن احتفالات وفاء النيل وبحر الخليج ومقياس الروضة فهي كثيرة.

ففى العصر الفاطمى كانت تسجل العلامات يوميا وعندما يقترب النيل من الفيضان يذهب الخليفة للمبيت فى المقياس .وتبدأ قراءة القرآن وإيقاد الشموع .وكان يخرج من قصره الكبير-كما يقول المؤلف- إلى باب زويلة ثم حى الصليبة ليمر بهركتى الفيل وقارون ثم يركب سفينته ويذهب إلى مقياس الروضة ليصلى ويضع على عمود المقياس المسك والعنبر.

وبعدها فى العصر الأيوبي يتكرر الحدث ويركب السلطان سفينته إلى المقياس ويكون فى استقباله مئات المراكب التى تحمل من أكبر كبير إلى أصغر صغير ويضع للمقياس المسك والعنبر ثم يأمر بفتح الخليج . ومعنى هذا أن فهم عمر بن الخطاب لطبيعة مصر والأراضى المصرية كان فهما وإدراكا صحيحا للأمور . ولهذا جاء الخلفاء والسلطين من بعده ليتعاملوا مع نيل مصر وبرها بنفس مفردات التقدير والاحترام .

أما هذا المقياس فكان فى الأصل هبة جميلة تضاف إلى مصر وقد صممه المهندس أحمد بن محمد الحاسب ليشهد على براعة الفنان المعمارى المسلم الذى أنشأ مثل هذا المبنى فى النيل على ثلاثة مستويات . أولها المستوى الأول وهو دائرى ثم المستوى الثانى والثالث وهما على شكل مربع ويتوسطه عمود رخامى مدرج مدون عليه علامات القياس وعليه كتابات بالخط الكوفى وهو ثمانى الأضلاع مثبت فى وسط بئر بواسطة عقدين يرتكزان على حائط البئر من الداخل.

والعمود مقسم إلى تسع عشرة ذراعا. ويوجد فى جدران المقياس ثلاث فتحات بالقرب من القاع تزينها عقود مدهبة ترتكز على أعمدة تصل إلى النيل عن طريق قنوات يتم من خلالها دخول المياه لبئر المقياس، والمقياس من الناحية المعمارية يعتبر معجزة وقد تم بدء بنائه فى موسم التحاريق حيث كانت نسبة المياه منخفضة باستخدام خشب الجميز فى البناء الذى اتضح أنه يمتص المياه ولا يتأثر بها.

وقد شيد المقياس من أسفل على شكل دائرى حتى يتحمل شدة تيار الماء فلا تتفتت جدرانه ثم تحول المعمارى بالمستويين الثانى والثالث إلى الشكل المربع.

ويضم المقياس فنون العمارة الإسلامية كلها بدءًا من العصر الإسلامى الأول وحتى العصر الحديث بعد أن جددته لجنة الآثار العربية وقام الأثريون بإجراء صيانات وترميمات دورية له.

إلا أن أول هذه الترميمات والإصلاحات تعود إلى الطولونيين ثم إلى بدر الدين الجمالى وزير الخليفة المستنصر عندما بنى بجواره المسجد المعروف بمسجد المقياس والذى دمر إثر انفجار بمصنع للبارود بالجزيرة عام ١٨٣٠م.

وفى العصر المملوكى شيد الظاهر بيبرس قبة على البئر ثم قام سليم الأول فى العصر العثمانى بإجراء بعض الإصلاحات التى أتمها فيما بعد الأمير على بك الكبير خاصة فى عمود المقياس.

ويقال إن حمزة باشا تابع التجديدات ولكن فى العتب الخشبى الذى يربط بين الجدران لتدعيم عمود المقياس من أعلى هذه المرة.

وحتى الحملة الفرنسية كانت لها بصمتها على المقياس. كما تحكى الأثرية سلوى حيرم. فكما قال الجبرتي إنهم غيروا من معالنه وبنوا القاعة التى بها العمود بشكل لا بأس به.

وفى العصر الحديث قامت لجنة حفظ الآثار بعمل إصلاحات شاملة نتيجة حدوث هبوط فى العمود وأقامت عليه هذا القطاء الهرمى الذى يشاهد عليه الآن. واستمر الحال إلى أن جاء زمن السد العالى فأحال هذا المقياس للاستيداع بعد قرون طويلة من العمل المضنى وفاء للرسالة المصرية، وإن كان اليوم يستمر كمزار أثرى لا يعلم عنه الناس الكثير.

إلا أن هناك من يعود كالدكتور محمد إبراهيم بكر أستاذ الآثار الإسلامية ليؤكد أن الفكرة أولا مصرية. والمقياس له نظير فى أسوان، وإنه كان هناك دائما منذ عصر الفراعنة الموظفون المكلفون بمتابعة عملية ارتفاع الفيضان لتبليغ مدينة منف بما يحدث.

والمقياس الموجود فى أسوان موجود على صخور جرانيت أسوان فى جزيرة فيلة وعليه نفس العلامات المصرية القديمة. وقد أعيد استعماله فى العصور التالية وهناك مقياس فى اتجاه الجنوب عند معبد إيزيس الشهير الذى نقل بعد أن تعرض للغرق بعد السد العالى، وبعيدا عن هذه المجادلة العلمية، فالمعروف أنه كان لمقياس النيل جهاز إدارى عالى المستوى يقوم بعملية القياسات، حتى إذا وصل ارتفاع النيل عند الحد اللازم للمياه يكون النيل قد أوفى بوعده ويقام احتفال كبير.

فقد كان كل شىء يتوقف على هذا المقياس وتبليغ موظف الرى فى مصر القديمة للقيام بالزراعة فى أراضى مصر.

كما كان لهذه المقاييس أهمية كبيرة أيضا في تحديد الضرائب. فلا يمكن فرض ضرائب باهظة على الفلاحين إذا لم يوف النيل واستمر الحال حتى بناء سد أسوان. فكان يجب مراقبة الارتفاعات حتى يأخذ الناس حذرهم فلا يداهمهم الفيضان وحتى يمكن للدولة المصرية فرض الضرائب وهي مطمئنة على حال الأراضى والزراعة والخير فى بر مصر. فقد كان فى الأزمنة الفرعونية الأولى يعتقدون فى أساطيرهم أن الفيضان يأتى من دموع إيزيس حزنا على وفاة زوجها. وكانوا يعتقدون أيضا أن مياه الفيضان تنفجر من خلف جزيرة فيلة وأن مصدرها عيون ضخمة تحت الأرض.

وبدون الفيضان كانت البلاد والعباد يعانون من قحط شديد. وكان هذا يعنى فى أهون تقدير أن شرا ألم بأهل الأرض وأن الوفاء يعنى الماء والطمى اللذين لا تصح الأرض بدونهما.

أما إذا جاء الفيضان فقد كانوا ينتظرون بعد أن ينتهى الفيضان وتنسحب المياه من الأراضى. فالحياة كانت تبدو مشلولة لمدة ثلاثة أشهر وهى وقت الفيضان بعدها تنحسر المياه وتذهب إلى البحر. وتظل الأرض رطبة وتبدأ فى الجفاف قليلا فتنشأ الحياة الزراعية وتخضر الأرض بعد طول انتظار.

ولا غرابة فى هذا فقد كان كل شىء فى مصر مقسما إلى مواسم باسم الطبيعة. ولهذا كانت هناك ثلاثة مواسم وليست أربعة وهى موسم الفيضان وموسم الزراعة وموسم الحصاد.

المقطم جبل الأولياء

هو جبل... ولكنه ليس كأي جبل آخر فهو صاحب أكبر قدر من الأحداث الحقيقية والحكايات في هذه الدنيا. صحيح إنه ليس الجبل الوحيد الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه، فهو ليس طور سيناء الذى ذكر فى القرآن الكريم، ولا جبل أحد الذى وصفه الرسول ﷺ بأنه جبل يحبنا ونحبه ولا حتى جبلا من جبال مكة الذين سبق لهم شرف الإطلال واحتواء البيت العتيق.

إلا إنه جبل المقطم الذى ما إن وصل جند عمرو بن العاص الفاتحون بر مصر وراوه لأول مرة حتى أصيبوا بحالة من الارتباك الكبير لأنهم لم يجدوه يختلف عن جبال أخرى شاهدها. وكان الجبل ليس من أصحاب الطبيعة المصرية إلا إنهم تأكدوا بعد ساعات وربما لحظات... إنه المقطم جبل المصريين وصاحب الألف حكاية وحكاية والتي قد نحكى بعضها فالحكايات تتعدد والواقع تلبسه المبالغة فى كثير من الأحيان.

فربما قد يستوقفنى من لا يصدق، ولكنه المقطم ذلك المجهول الذى نتحدث عنه ونعلم أنه فى النهاية لن يكون أكبر الحكايات المصرية. فإذا كنا قد رويناه بعضا من قصص القادمين إلى بر مصر وإذا كنا نتحدثنا عما فعله الناس فى سبيل الخير، فالأولى بنا أن نقرأ هذه الأوراق وأن نتعرف إلى أشخاص أصبحوا فيما أصبحوا نوادر مصرية صميمة يعرفها سكان المحروسة.

الورقة الأولى

غراس الجنة

. يذكر كتاب «فتوح مصر وأخبارها» لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى رحمة الله عليه، نقلا عن عبد الله صالح حدثنا الليث بن سعد أن سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار فتعجب عمرو من ذلك وقال أكتب فى ذلك إلى أمير المؤمنين. فكتب بذلك إليه عمر فكتب إليه عمر سله فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة.

فكتب بذلك إلى عمر.. فكتب إليه عمر: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين فأقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ولا تبعه بشيء فكان أول من دفن فيها رجل من المعافر يقال له عامر فقيـل عمرت. (٢٩)
أما أول قصة للمقطم فقد حار الناس فى معرفتها إلا إنا يمكننا القول إنه ومنذ تفتحت أعين الناس عليه وهو موطن الخير والبركة بينهم ولهذا تتعدد الروايات.

فالمقريزى يحكى إنه كان فى الأصل جبلا للذهب والفيروز، وإنه كان يسكنه يوما رجل يدعى مقيطام الحكيم وقد ذاعت شهرة هذا الحكيم حتى وصلت إلى من يملك مصر فطلب منه أن يخرج له وذهب إلى المقطم الذى لم يستطع أحد من قبل أن يصل إليه.

وقد كان المقطم أكثر الجبال التزاما بالطبيعة المصرية وخاصة قيم التسامح والعطاء، ولهذا لما كانت الليلة. والكلام لابن الزيات. التى كلم فيها الله موسى أوحى إلى الجبال إنه مكلم نبيا من أنبيائه على جبل منها فتواضع جبل طور سيناء وتصاغر إجلالا لله. فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن يجود كل جبل بشيء مما عليه فجاد كل جبل بشيء إلا المقطم الذى جاد بجميع ما كان عليه من شجر ونبات وماء فعوضه الله تعالى بأن جعل فى سفحه غراس أهل الجنة. (٣٠)

وبرغم أن القصة لا يوجد من يؤكد بها بشكل قاطع لتكون لنا دليلا فى جبل المقطم، كما لا يوجد أيضا من يؤكد أن راويها لم يكن أكثر من مغرم بهذا البلد فإننا نقرأ كل ما قيل.

فيقال وكما جاء فى كتاب «الدرر المنظم فى زيارة جبل المقطم» للإمام العارف موفق الدين أن أكبر إخوة يوسف سنا وأرشدتهم رأيا قد أقام فى هذا الجبل أمام تنور فرعون فى المكان المعروف الآن بمشهد إخوة يوسف.

وقد كان هذا التنور يوقد عليه النار فإذا رآها الناس اجتمعوا. ولهذا يعد التنور أقدم بكثير من مشهد إخوة يوسف إلا إنه هدم فى زمن أحمد ابن طولون.

إلا إن ما نعرفه يقينا إن جبل المقطم يضم الكثير من الأودية التى قد لا يعرف عنها الناس الكثير. ففيه وادى المستضعفين الذى كان يعيش فيه سلطان المحبين عمر بن الفارض ووادى الملك ووادى دجلة القرقوبى

الذى بناه وكيل التجار فى مصر فى عهد الدولة الفاطمية، ومحراب ابن الفقاعى وهو أحد الصالحين، وكهف السودان الذى تصفه د/ سعاد ماهر فى «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» بأن قوما من السودان حفروه فى هذا المكان وتعبدوا فيه. فهو فى الأصل كهف للعبادة ثم زاد عليه الأندلسى البراز فى القرن الخامس الهجرى ووضع إليه طريقا. (٣١)

وأما المساجد.... فهناك مسجد الكنز واللؤلؤة المشهور بإجابة الدعاء ومسجد دكة القضاة التى كانوا يجلسون عليها لرؤية هلال رمضان ومسجد القضاء وبناه كافور الإخشيدي وبه محراب يقال إنه قد بناه حاطب بن بلتعة رسول المسلمين إلى المقوقس وهو أوائل المحاربين فى مصر.



الورقة الثانية

فى رحاب الصالحين

مرة أخرى نعود إلى أول المسلمين الذين جاءوا إلى مصر فنصل إلى مسجد عقبة بن عامر الصحابى الجليل الذى كان من أوائل من توفاهم الله تعالى من صحابة الرسول ﷺ بأرضها.

ولعقبة بن عامر تاريخ كبير كصحابى بايع الرسول وشهد فتح الشام ومصر مثل غيره من صالحى هذا العصر فقد كان مسلما حنيفا يخاف الله ويحسن لسان العربية وكان من الثمانين صحابيا الذين وقفوا على قبلة جامع عمرو بن العاص، وقد روى عن الرسول ﷺ الكثير من الأحاديث. تولى عقبة إمرة مصر فى عهد معاوية بن أبى سفيان الذى أمر له بأرض عرفت باسم منية عقبة والتى حرفت فيما بعد إلى منطقة ميت عقبة الشهيرة، ويقال إن صلاح عقبة بن عامر كان واضحا حتى إنه صحب الرسول ﷺ فى حياته وأنه توفى فى اليوم نفسه الذى توفيت فيه السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضها.

ويقال أيضا إن قبره كان معروفا للمصريين إذ إنه ضمه مع صحابى آخر وهو أبو هبرة الغفارى، ولا غرابة فى أن تكون داره الأخيرة فى مصر وقد كانت له من قبل الدار الجميلة فى الشام والصحبة المباركة فى المدينة المنورة إلا إن المثوى الأخير كان فى أرض مصر.

ولا غرابة أيضا عندما نصفه بالمحدث والشاعر وأول من ساعد في جمع القرآن الكريم وأول من نشر الرايات على السفن كما أشار د. عاصم رزق في موسوعته «أطلس العمارة الإسلامية والقبطية في مصر» وبقي ضريحه بالقرب من مسجد الإمام الليث بن سعد رحمته الله جهة بساتين الوزير. وقد اهتم به صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي هدم القبة وأنشأ بدلا منها قبة فخيمة جددت في عهد الملك الكامل محمد ابن العادل الأيوبي.

وأما المسجد والضريح الموجودان الآن وما ألحق بهما من سبيل ومكتب للأيتام ومساكن للموظفين وما أوقف عليه من عمائر فقد اكتملت صورته في عهد الوزير محمد باشا سلحدار العثماني. والمسجد كما تصفه د. سعاد ماهر يتكون من مستطيل وقد زخرف سقفه بنقوش زيتية وخطت عليه أبيات من قصيدة البردة. وفي الحائط الشرقي كتب ﴿إِنَّا بِعَمْرِ مَسْجِدِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [سورة التوبة آية: ١٨].

وأما اللوحة التأسيسية فقد كتب عليها كتابات نسخية نصه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْتُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٦].

هذا مقام العارف بالله تعالى الشيخ عقبة بن عامر الجهني رضي الله تعالى عنه، وكتب أيضا على الحائط الشرقي هذا قبر عقبة بن عامر الجهني حامل راية الرسول ﷺ.

ويوجد على اليسار مئذنة أسطوانية تبدأ بقاعدة حجرية مربعة وتنتهى بقمة مخروطية تشبه القلم الرصاص. وفى الجنوب الغربى يوجد الضريح الذى يعلوه قبة اعتبرت أجمل وأكبر القباب التى أنشئت فى العصر العثمانى.

أما السبيل والكتاب فقد أوقفهما محمد باشا السلحدار كما أوقف أموالاً أخرى. فقد كان رحمه الله مسلماً صحيح الإيمان.

وهناك مبان تابعة للمسجد من منشآت محمد باشا السلحدار وبها سبيل ذو شباكين، وهناك رحبة شمالى المسجد بها قبور مجموعة من العلماء والمشاهير، وقد ذكر على باشا مبارك قسماً كبيراً من وقية تصف المسجد وأوقافه». (٣٢)

فالواقع يقول إن هذا المسجد حتى ولو لم يحظ بالكثير من معرفة الناس به فإنه مسجد ينتمى إلى الأماكن المباركة فى مصر.. أوليس داخله صحابى جليل شرفت مصر بوجوده بين أهلها لزمان؟!



الورقة الثالثة

الأيام المصرية

وفى مكان ليس ببعيد عن الصحابة الصالحين يوجد ضريح العز لدين الله بن عبد السلام ، وقد عاش بمصر عشرين عاما ، وكان ممن يبعثون على رأس كل مائة عام فيجددون شباب أمة محمد ﷺ ، ولهذا نعتبره علامة فارقة فى فقه المصريين وحياتهم.

والعز بن عبد السلام هو ابن العصر الأيوبي ، حيث قدر له أن يعيش فى هذا الوقت وأن يكون جزءا من كيانه ومن المشكلات التى بدأت تطل برأسها بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي .

فبين الإخوة والأبناء ذهبت الأرض التى استطاع صلاح الدين حمايتها ، ولم يكن هناك بد من اقتسامها بعد رحيل القائد الذى كتب اسمه بحروف من نور فى سجل المدافعين عن الإسلام .

فى هذا الزمن اشتد عود العز بن عبد السلام الذى أهله زكاؤه وقدراته المتميزة على أن يتلقى العلم على يدى شيخه الفخر بن عساكر . فعرف كيف يقرأ على يديه فى أصول الفقه على المذهب الشافعى . فاعتبر الشيخ الفخر هو البداية الموفقة لمشوار طويل لم يترك فيها أى باب للعلم دون أن يطرقة .

وفى المسجد الأموى قرأ فى التفسير والفلسفة وعلم الكلام وآراء المعتزلة الذين توقف عندهم العز بن عبد السلام كثيرا ووجد فيهم نقطة نظام خاصة أثرت حياته العقلية التى قدر لها أن تستفيد من فكرة أعمال العقل ومن آراء الأشعرى بوجه عام حتى إنه وكما يذكر الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى فى مقاله «العز بن عبد السلام.. سلطان العلماء» شاعت عقيدة الأشعرى فاجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة. وكان صلاح الدين قد اعتنق المذهب الشافعى وعقيدة الأشعرى فألزم بهما الناس.

غير أن الذين جاءوا من بعده تفرقوا: «فظل بعضهم شافعيًا على رأى صلاح الدين واعتنق بعضهم غير ذلك من المذاهب ولم يظلوا جميعا على رأى الأشعرى إلا قليلا». (٣٣)

وبرغم أن النشأة الأولى للعز كانت بالشام فإن لمصر حكاية معه فعندما تولى الملك الكامل حكم مصر كان رجلا ممن يحترمون العلماء بل إنه كان واحدا منهم.

فقد كان الكامل من أولى العزم الذين خلقوا للمهام الصعبة. وكان العز بالطبع يجد فيه ملاذا للعلماء خاصة إنه صدر فى عصره كتاب «التذكرة» الذى يعتبر من أهم كتب الفقه الحنفى.

وهكذا لم تكن مصر بعيدة عن عقل العز بن عبد السلام ولا عن تدبيره، بعد ما رأى من فعل غيره من المشايخ الذين يحسدونه على مكانته بعد أن أوغر صدورهم بشعبيته وبالتفاف العامة حوله. فقرروا أن يبدأوا حربهم من باب الملك الأشرف فى الشام ليغروه بالإطاحة بالشيخ.

ومن جانبه لم يكن الملك الأشرف يريد أن يغضب الملك الكامل فتجاوز عن حقد الحاقدين وعين العز بن عبد السلام فى الجامع الأموى. فكان الأمر كما وصفه الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى كجمع لكل وسائل النفوذ وأدواته.. فهو خطيب الجامع الأموى وأكبر المفتين وهو شيخ الحلقة يقنع الناس بوضوح الدليل ونصاعة البرهان وقوة الحجة، ثم هو إلى كل ذلك قاضى القضاة، فعلى رجال الدولة تنفيذ ما يقضى به وإلا أثموا شرعا واختل ميزان الأمور.

والشيخ يجد ويجتهد فى دروس الفقه والأصول بالزاوية الغزالية فى الجامع الأموى وينشط قضاؤه وفتاويه لاستنباط الأحكام من القرآن والسنة وإجماع الصحابة والقياس الصحيح وتحرى مصالح الأمة التى هى مقصد الشريعة حتى لقد صح عند الشيخ الحاجب المالكى وهو واحد من أفقه علماء دمشق أن يقول:

لم نعرف منذ الأئمة الأربعة من هو أفقه من الغزالى إلا الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام. (٣٤)

فحقيقة إن الشريعة فى الأصل هدفها تحرى مصالح الأمة إلا أن تكالب الكثيرين على معاش الحياة ودفاعهم المستميت عن حزمة المصالح الواهنة التى حقوقها لهو كفيل بإقناع أعداء العدالة فى كل زمان ومكان بعدم اليأس وإلقاء أسلحة الباطل.

فمثل هؤلاء يملكون القوة السحرية لإشاعة الضلال الذى يرمى عزهم واستمرارهم. فمزال أعداء الشيخ العز يجاهدون قدرات الشيخ ولا يأسون من نسج الشائعات المغرضة حوله، حتى بعد أن تحقق له كل هذا النجاح الذى كان لا يعنى لهم شيئا أكثر من خطأ لا يمكن أن يتكرر.

فلم يكد الملك الكامل يغيب عن الساحة بعد أن توفاه الله تعالى حتى أظهر الصالح إسماعيل الوجه القبيح للشيخ العابد والذي لم يكن أكثر من إرث وفاء ما لبث أن تخلص منه ومن فكرة الوفاء نفسها بعد أن مات أخوه.

فعلى الرغم من أن هذا الصالح إسماعيل هو نفسه الذى لجأ إلى الشيخ عندما أحس أن أخاه سيعزله بسبب تصرفاته الماجنة وفتح الأبواب للفرجة يروحون ويجيئون بل وينهبون من البلاد كما يشاءوا فإن هذا لا يشفع للشيخ عنده.

أما مصر فقد كانت مصيبتها أكبر باستقرار ملك مثل هذا يعيش على الباطل إلا أن الأيام ما لبثت أن أنصفت المصريين عندما انقلب عليه أخوه الصالح نجم الدين أيوب.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وخاصة فى وجود الصالح إسماعيل على رأس الشام والصالح نجم الدين أيوب على رأس المحروسة مصر. فكل منهما يتبنى سياسة لا بد وأن تصطدم بسياسة الآخر، حتى لو استبعدنا حكمنا على سياسة كل منهما بميزان الحق والباطل.

ويجد العز بن عبد السلام نفسه وسط دوامة الأحداث من جديد. فهناك ما يستدعيه للجهاد. فالعز وإن عزل من كرسيه لم يكن ذلك الرجل الذى يتوقف عند هذه الأشياء الدنيوية التافهة.

فذهب فى كل مكان يفتى بعدم التعامل مع الفرنجة تعاملًا من أى نوع. والأكثر من هذا أنه أفتى بأنه من باعهم السلاح فإنه آثم قلبه وإنه خرج عن طاعة الله تعالى ورسوله ولم يعد فى ملة المسلمين.

فكيف يبيع السلاح لمن يريد أن يعمله في قلب وأحشاء الصغار والنساء والرجال والشيوخ من أهل الإسلام. ومن يفعل هذا فهو قاتل الأبرياء يمنع عنه الله تعالى رحمته ويعامل معاملة المنافقين في صدر الإسلام.

وهكذا تحقق لكل حساد الشيخ كل ما أرادوا من خروج على طاعة السلطان وهو الأمر الذي لم يكتف به الشيخ بل جهر بعصيانه وحرض الآخرين على السلطان الأمر في البلاد.

وهكذا أيضا تحقق للشيخ ما أراد، فالحق أحق أن يتبع ودولة الظلم ساعة ودولة الحق لا تسقط ولا تموت.

كما أنه بعصيانه للصالح إسماعيل يكون قد انتصر على نفسه، وأحيا سنة الدين الحنيف بعدم الانصياع للظالمين والمنافقين.

أما السلطان فقد تحقق له ما أراد بخروجه على أهله وتقاليده بلاده ليصبح أكثر قربا من الفرنجة الذين اعتبرت مودتهم الزائفة بالنسبة له أغلى انتصار حققه في حياته.

وبهذا الأسلوب الواضح في التعامل أصبح كل طرف سعيدا بما حقق، ويحسب بأنه بهذه الطريقة قد ألحق هزيمة فادحة بالطرف الآخر.

فهذا طالب الدنيا قد نالها وهذا طالب العرش وقد حصل عليه وهذا طالب لرضا الله تعالى وقد وصل إليه.

إلا أن هذه الدائرة الجهنمية لم تكد تقف عجلاتها عند هذا الحد .. فالمطلوب هو سجن الشيخ العز بن عبد السلام وصديقه الشيخ ابن الحاجب المالكي لضبط إيقاع الأسواق والمساجد والبيوت التي أصبحت كتله مشتعلة من كراهية للملك الصالح إسماعيل.

فقد أشعلها الشيخ ولم تهدأ ولم يهدأ، لأن غاية حلمه هو نزع السلطان عن الصالح إسماعيل الذى ألقى ببلاذه طواعية فى أحضان الفرنج. ويسجن الشيخان العز والمالكي ويستبين الأمر بتمام خلع الشيخ العز من كل مناصبه بشكل معلن، ولا يطول السجن فسرعان ما يغادر العز بلاذه إلى ملاذه الذى كان دائما يرقاه من بعد. فإلى المحروسة مصر كانت وجهته هذه المرة بعد رحلة لم تكن باليسيرة حيث قابل الشيخ أصحاب المصالح والسلطان الذين كان من الممكن أن يردوه إلى بلاذه إلا أن الشيخ قرر مواصلة السير إلى مصر برغم كل تهديد وترغيب.

وفى مصر تستقر الأحوال لزمن بالشيخ الثائر فينصرف للدرس والعلم. ويمضى وقته إما دارسا أو معلما، خاصة بعد أن اشترى له أهل مصر منزلا كبيرا له حديقة غناء تشبه إلى حد كبير الحديقة التى طالما حلمت زوجته بالعيش وسط أشجارها. ويتدارك الشيخ كثيرا من الزمن الذى ذهب سدى وهو موكول بأمر من حوله من الناس فينصرف للقراءة والكتابة ويقدم وجهة نظره مكتوبة للمصريين وللأجيال التى تأتى من بعده.

وإن كان فى الحقيقة لم يذهب وقته سدى، حيث إن دوره الاجتماعى والدينى كان يقتضى منه الالتزام بهذه المواقف السالف سردها وإلا فما قيمة درس علم لا يستفيد منه قائله.

فالتدين الحق ليس مجرد كلمات يقصد بها الالتزام بالفضيلة والصراط المستقيم، فالتدين يعنى أن نكون من هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقد كان العز بن عبد السلام واحدا من هؤلاء الذى اجتمع فيهم صلاح الدين والدنيا.

وبرغم أن العز فيما يبدو قد خسر معركة في دمشق فإنه أيضا وبهذه الصيغة تم تعيينه إماما وخطيبا لجامع عمرو الذي كان المسجد صاحب الصوت الأعلى في عصره ليفسح له الطريق للجلوس على مقعد الإفتاء في مصر.

وإن كان هذا يعني أن الأمور في مصر مؤهلة لتدور الأحداث من جديد في اتجاه حرب وشيكة بين أهلها والفرنجة الصليبيين الذين كانوا السبب الرئيسي وراء الفتنة الكبرى التي حدثت في بلاد الشام بل والسبب الرئيسي أيضا في انتفاض الشيخ عن مقعده الفقهي الوثير من أجل الحق الذي لا يراد به باطل.

ويقرر الشيخ دون تردد الانضمام لصفوف المقاتلين عند علمه باقتراب جنود لويس التاسع من دمياط. ويذهب الجميع إلى المنصورة ليشهدوا انتصار الجيوش المصرية ولتتوالى بعدها الأحداث، فيموت الملك الصالح نجم الدين أيوب على إثر علة صحية وتصبح الفرصة سانحة أمام مماليكه لاعتلاء عرش مصر.

وتتوالى الأحداث ليدق التتار أبواب العالم الإسلامي هذه المرة ويثبتوا قدرتهم على اجتياح البلاد ويدقوا أبواب الشام بعد أن تسكرهم انتصاراتهم في آسيا واجتياحهم أرض فارس وسقوط بغداد، ولاتجد مصر غير سلطانها المظفر قطز الذي يمثل لرأى الشيخ العز في بيع أسلاب المماليك التي حصلوا عليها في السنوات الأخيرة نتيجة اعتقالهم سهوة السلطة في مصر.

وتستطيع مصر برغم ظروفها الصعبة تدارك الأمر ورد الزحف المغولى عند عين جالوت إلا أن الجميع يفاجأ بوثوب الظاهر بيبرس إلى العرش بعد تخلصه من قنطرة عقب النصر وفى طريق عودته إلى بر مصر. ولكن هل يعنى هذا أن العبيد الذين أتى بهم السلطان لخدمته يمكن أن يصبحوا أمراء وسلاطين.

فهذه معركة أخرى للعز بن عبد السلام يصفها السيوطى «فى حسن المحاضرة» فيقول: «تصدى الشيخ عز الدين لبيع أمراء الدولة من الأتراك، وذكر إنه لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فعظم الخطب عندهم. والشيخ مصمم لا يصح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا».

وتعطلت مصالحهم لذلك، وكان من جملة نائب السلطنة، فاستشار غضبا، فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال الشيخ: نعقد لكم مجلسا وننادى عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجع، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه.

فانزعج النائب وقال: كيف ينادى علينا هذا الشيخ ونحن ملوك الأرض؟! والله لأضربنه بسيفى هذا فركب بنفسه فى جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول فى يده.

فطرق الباب، فخرج له ولد الشيخ فرأى من نائب السلطان ما رأى، وشرح لوالده الحال فما اكرث لذلك، وقال: يا ولدى. أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ثم خرج فحين وقع بصره على النائب يبهت يد النائب وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له.

وقال : يا سيدى إيش تعمل؟

- أنادى عليكم وأبيعكم ويحصل عتقكم بطريق شرعى.

- فيم تصرف ثمننا؟

- فى مصالح المسلمين.

- من يقبضه؟

- أنا.

انصرف نائب السلطنة إلى السلطان حيث كان جميع الأمراء قد اجتمعوا عنده، فروى لهم نائب السلطان ما كان بينه وبين الشيخ. ولم يذعن السلطان فأرسل إلى الشيخ من يتلف له ويحاول صرفه عن بيع الأمراء، وأخبره الرسول بعد حوار طويل أن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء، وأمر السلطان واجب وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين. وعلى أية حال فليس للشيخ أن يدخل فى أمور الدولة فشئون الأمراء لا تتعلق به.. فهى شأن السلطان وحده.

أنكر الشيخ تدخل السلطان فى القضاء وقام فجمع أمتعته ووضعها على حمار، ووضع أهله على حمير أخرى وساق الحمار ماشيا إلى أين يا شيخ؟

قال: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟

فيم المقام بأرض يستضعف فيها أهل الشريعة ويعتدى فيها على

القضاء. (٣٥).

وهكذا تسير الأحداث بالعز بن عبد السلام الذى لم يكن يهاند
الأعداء ولا يحط من قدر عقيدته بائتلاف واهن مع أولى الأمر.

وهكذا أيضا نتوقف عن الحديث عند هذا الحد... فحياة الشيخ العز
مثلها مثل أى شىء فى هذه الدنيا لها بداية ونهاية.

وما أسرع الأيام.. فبعدها بزمان يسير تنطفئ شمعة العمر عندما
يبلغ الشيخ عامه الثالث والثمانين وهو يفسر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [سورة النور آية: ٣٥] ويترك كل شىء فى هذه
الحياة ويخرج من مصر مسافرا إلى الله عز وجل بعد أن جلس الظاهر
بببرس على عرشها واستراح ودام الأمر له لسنوات.

وتتذكر البيوت المصرية العز بن عبد السلام الذى كان أفضل من عرف
الإسلام فى زمنه ويحتضنه المقطم بجوار الإمام الليث فى قبة أقيمت فى
أوائل العصر المملوكى لها قيمة معمارية خاصة إلا أن هذه القبة يصيبها
الكثير من الهدم ليبقى العز بسيرته وبما قدم للإسلام.

ولكن هل ينتهى الأمر عند العز بن عبد السلام أو عند عقبة
ابن عامر أو حتى عند بدر الدين الجمالى الوزير الفاطمى الذى أقام
مسجد الجيوشى الشهير الذى يقف عند قمة المقطم بكتابات الكوفية
وإضافات العصر التركى.

لا أعتقد فالقصة لم تتم فصولا فهنا فى المقطم روايات وحكايات
للإمام الليث وابن الفارض وجاهين الخلوتى وصلاح الدين... فما هى
حكاية هذا المكان؟!

الورقة الرابعة

فى حضرة مولانا ابن الفارض

يستيقظ الصبح... وتبدأ الحياة تدب من جديد فى مصر المحروسة مع صوت آذان الفجر وظهور أول الخيوط البيضاء فى الظلام بعد فترة سكون.

فمن يعيش فى سكون الليل لا يظن بأى حال أن الناس كانوا يروحون ويجيئون هنا وهناك فى هذه الأزقة وراء لقمة العيش بين النساجين والعطارين والنحاسين والوكالات وبيوت التجار منذ طلعة الصبح. فالظلام ينبئ بأن النوم والهموم أثقلت جفون الناس فلم يبق طفل ولا شيخ ولا رجل ولا امرأة مستيقظا. فلم يبق مستيقظا إلا من تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فيعتزلوا الدنيا فى حجرات لا يظهر فيها إلا خيالهم وهم يسجدون ويقرأون القرآن أمام شموع ضعيفة تبدو هى الأخرى وكأنها خيوط تكافح الظلام الشديد.

أيام الأيوبيين

مازلنا فى زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي فارس العرب والإسلام الذى قد تغيرت الكثير من الأشياء بقدمه إلى بر مصر.

فقد اختفت الأحاديث فى البيوت المصرية عن أيام الفاطميين ولم يعد هناك حديث مفصل سوى عن القلعة التى تبنى على مشارف جبل المقطم بعد أن أصبح البناء فى هذا المكان ليس بجديد على المصريين، فعلى حافته يوجد مسجد الجيوشى الذى بناه بدر الدين الجمالى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر بالله والذى استطاع فى غضون سنوات قليلة أن يعيد الرخاء إلى مصر. وكان رحمه الله من أفضل البنائين حيث إن هذا المسجد يبدو فى توافقه مع تضاريس المقطم وكأنه قطعة منه.

وفى مكان آخر ليس ببعيد يوجد مشهد إخوة يوسف عليه السلام اليسع وبنيامين وروبيل والذى أمر بإنشائه الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله، ومسجد اللؤلؤة الذى كان مسجدا قديما أعاده إلى الحياة من جديد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله.

وفى مكان آخر يوجد الكثير من مشاهد الصالحين والمسلمين الأوائل مثل محمد بن أبى بكر الصديق الذى جاء إلى مصر حاكما ذات يوم. ولهذا فوجود قلعة على مشارف الجبل المبارك لم يعد بدعة.

فالمقطم يحمى القاهرة المحروسة وقد تأكد الناس من الأمر عندما رأى بعضهم بعينى رأسه ما قد كتب من أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة للمحروسة القاهرة.

ولهذا فقد تعدد العارفون بجبل مصر المقطم ولم يعد غريبا أن نرى ابن الفارض سلطان العاشقين وهو يجوب وادى المستضعفين.. لنتوقف عند حكايته!

وادی المستضعفين

تبدأ القصة فى الشام حيث الحياة الهادئة ومع هذا تقرر الأسرة الرحيل إلى مصر بعد أن تبين لعائل الأسرة أن هناك فرصة للاستقرار بمصر والتدرج بوظائف القضاء.

وقد بدأ الأب فى مصر فارضا أى من يثبت فروضا للنساء على الرجال وبعد نجاحه فى عمله أصبح الطريق مفتوحا لأن يكون قاضى قضاة المحروسة وداعى الدعاة إلا إنه وكما يقول ابن إياس قد أثر العزلة والانقطاع واعتكف لله بقاعة الخطابة بصحن الجامع الأزهر.

فالأب كان صالحا وموفقا فى دينه ودنياه، ولأن النبتة الصالحة لا تبتعد عن أرضها فقد رأى الابن ما كان من الأب فأصبح هو الآخر تقيا ورعا.

فمنذ ولد ابن الفارض. أبو حفص عمر بن أبى الحسن على المرشد بن على فى عام ستة وسبعين وخمسمائة من الهجرة وكما يقول ابن خلكان وهو يعيش فى زمن يحتفى كثيرا بالعلم والدين.

فلم يكن انتقال أسرته من حماة بالشام إلى مصر المحروسة ولاتتابع سلاطين الدولة الأيوبية إلا مساحة كبيرة من الزمن امتدت لما يقارب أربعة وخمسين وربما ستة وخمسين عاما من السياحة والتعب.

فالناس فى هذا الزمن الذى كثر فيه العلماء والزهاد والصوفية كانوا يشعرون بأن الاعتصام بحبل الله والتمسك بالعروة الوثقى هو الملاذ.

فقد هزم صلاح الدين الفرنجة فى أكثر من موطن إلا أن وجودهم على أبواب الدولة الإسلامية وتهديدهم للأماكن المقدسة كان يعنى بلا شك ألا يتركوا شيئاً نهبا للظروف فالعدو على الأبواب ولا يضيع من الأرض إلا ما يفرط فيه أهلها.

فهذا ما قاله علماء عصره وما يقوله علماء كل عصر. فما بالناس بما سمعه ابن الفارض من الشيخ عبد الرحيم القنائى وأبى الحسن بن الصباغ وعزالدين بن عبد السلام الذين كانوا فى الواقع ليسوا فقط مجرد علماء يقومون بعملهم فى هداية الناس وشرح ما استغلق فهمه من نصوص القرآن الكريم بل كانوا هبة من الله تعالى للمؤمنين فى ذلك العصر.

وأما وادى المستضعفين وجبل المقطم الذى كان المكان المفضل لابن الفارض فقد بدأت علاقته به مبكرا فى بداية شبابه عندما كان يتيه عشقا بهذا الجبل الذى رأى فيه الملجأ للتعبد ووجد فى واديه الغاية للمستضعفين، فكان يستأنز والده - كما يقول حفيده فى كتابه: «ديباجة الديوان» - ليعيش بين هذه السياحة ليلا ونهارا ثم يعود لوالده لأجل بره ومراعاة قلبه.

وكان والدى. والكلام لابن الفارض. يومئذ خليفة الحاكم العزيز بالقاهرة ومصر المحروسة وكان من أكابر أهل العلم والعمل فأجده مسرورا برجوعى إليه ويلزمى بالجلوس معه فى مجالس الحكم وفى مدارس العلم، ثم أشتاق إلى التجريد فأستأذنه وأعود إلى السياحة وما برحت أفعل ذلك مرة بعد مرة إلى أن سئل والدى أن يكون قاضى القضاة فامتنع ونزل عن الحكم. (٣٦)

وتبدو إلى الآن قصة نزول الوالد عن الحكم غريبة ، وكأنه هو الآخر
اختار طريق التصوف والتعبد مثل ابنه أما لماذا فعل هذا فى أخريات
عمره ، فهذا شئ يعلمه الله تعالى وحده علام الغيوب والأسرار والمطلع
على كل قلب وروح خلقها.

إلا إن ما اختاره ابن الفارض لنفسه منذ البداية جعله أكثر اقترابا
من موطن الشعر الذى كتبه ليعبر عن عشقه الشديد للطاعة والعبادة.
فيقدم ديوانا لم تعرف العربية مثله.. ويقول فى مصر:

وطنى مصر وفيها وطرى ولعيني مشتهاها مشتهاها

ويقال إن المشتهى الثانى اسم مكان ذكره المقرئى بمصر ضمن
متنزهات الفاطميين وكانوا يركبون إليه يوم السبت والثلاثاء ويقول
أيضا فى شهر رمضان المعظم الذى اختصه الله تعالى بالصوم ونزول القرآن
الكريم:

فى هواكم رمضان عمره ينقضى ما بين أحياء وطى
صائبا شوقا لصدا طيفكم جد ملتاع أى رؤيا ورى

أما الحياة فهى من حملت ابن الفارض بين طرقاتها لتجعل منه
الزاهد المتصوف ، وأما المصادفة فهى من جعلته يقابل شيخه البقال
فيحكى فى ديباجة الديوان إنه حضر يوما من سياحته فى القاهرة
ودخل المدرسة السيوفية فوجد شيخا بقالا على بابها يتوضأ وضوءا
غير مرتب ، فاعترض عليه ابن الفارض بأن هذا الوضوء مناف لقواعد

الشرع ، وهنا نظر الشيخ إلى ابن الفارض وقال له : يا عمر أنت ما يفتح عليك في مصر وإنما يفتح عليك بالحجاز في مكة شرفها الله فاقصدها فدهش ابن الفارض من هذا القول ورد على الشيخ بأن الأمر بينه وبين مكة بعيد وأنه لا يجد ركبا ولا رفقة غير أشهر الحج.

الأيام الحجازية

ويذهب ابن الفارض بالفعل إلى الحجاز حيث يقضى خمسة عشر عاما سائحا منقطعا كما كان يفعل في شبابه في المقطم حتى يعود مرة أخرى إلى مصر المحروسة ليحضر وفاة أستاذه البقال ويكتب في الحجاز وأهلها :

يا أهل ودي هل لراجي وصلكم طمع فينعم باله استرواحا
منذ غبتم عن ناظري لى أنة ملأت نواحي مصر نواحا
وإذا ذكرتكم أميل كأننى من طيب ذكركم سقيت الراحا
وإذا دعيت إلى تناسى عهدكم ألفت أحشائي بذاك حشاشا

وبعودة ابن الفارض إلى مصر تنقضى السنوات الأربع الأخيرة من عمره ويقال إنه رأى الجنة وعرف مكانه بها إلا إن غرامه كان هو الورع وسياحته في الحياة.

ويتوفى ابن الفارض في العام الثانى والثلاثين والستمائة الهجرى ويدفن عند سفح المقطم ويقام له ضريح منذ العصر الأيوبي إلا إن هذا الضريح وكما تؤكد د. سعاد ماهر تتوالى عليه الإصلاحات والتجديد

فيضيف السلطان اينال العلائي إليه مسجدا ويوقف الأوقاف لصيانتها وإطعام الفقراء ويقع المسجد بالقرب من جاهين الخلوتي.

والضريح الحالي يعود إلى عهد السلطان برقوق بينما يؤسس المسجد الحالي في القرن الثامن عشر على أيدي أمير اللواء الشريف السلطان على بك أمير الحج، ليحمل بين جنباته حجة أهل التوحيد وحامل لواء الشعراء وأحد نبغاء الأدباء والعظماء في زمانه والذي وصفه د.عاصم رزق في موسوعته بأن شعره اعترف به الموافق والمخالف، ووصفه ابن حجلة بأنه أرق الدواوين شعرا وأنفسها درا وأسرعها للقلوب جرحا إذ هو صادر عن نفثة مصدور وعاشق مهجور.

فلم يضع ابن الفارض حياته كما كان يقول في آخر أيامه، بل كان أفضل من كتب بالعربية شعرا صوفيا. فهناك أبيات شعرية متميزة قدمها شعراء الفارسية أمثال مولانا جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي.

فيقول مولانا جلال الدين الرومي في «الثنوى»:

استمع إلى هذا الناي يأخذ في الشكاية، ومن الفراق يمضي في الحكاية.
منذ أن كان من الغاب اقتلاعى، ضج الرجال والنساء من صوت التياعى.
ابتغى صدرا يمزقه الفراق، كى أبث آلام اشتياق.

كل من يبقى بعيدا عن أصوله لايزال يروم أيام وصاله.

ناثحا صرت على كل شهود. وقرينا للشقى ولل سعيد.

ظن كل امرئ أن صار رفيقى، لكنه لم يبحث من داخلي عن أسرارى.
وليس سرى ببعيد عن نواحي، لكن العين والأذن قد حرمتا هذا النور.

وليس الجسد مستورا عن الروح ولا الروح مستورة عن الجسد، لكن أحدا لم يؤذن له بمعاينة الروح.

وإن هذا الأنين نار وليس هواء، وكل من ليست لديه هذه النار ليكن هباء.

ونار العشق هي التي نشبت في الناي، وغلجان العشق هو الذي سرى في الخمر. (٣٧)

وأما عند ابن الفارض فالغرام يبقى:

إن الغرام هو الحياة فمت به صبا فحقتك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلى ومن بعدى ومن أضحى لأشجاني يرى
عنى خذوا وبى اقتدوا ولى اسمعوا وتحديثوا بصبايتى بين السورى
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرق من النسيم إذا سرى

وتعتقد الكاتبة ليلي الدورى فى موقع. التصوف الإسلامى» إنه إلى الآن لاتزال أشعار عمر بن الفارض موطن اختلاف فى تفسيرها. فمن قرأوا ديوان شعره من فهموا معانيه على ظاهر لفظه، وادعوا بأن حب ابن الفارض أراضى ماضى وأن غزله كغزل أبى نواس وغيره.

ومنهم من تفهموا معانى غزله الحقيقية ووقفوا على أسرار نفس صاحبه المتجردة ففسروه تفسيراً صوفياً حتى دعى ابن الفارض «سلطان العاشقين»، إلا إن حبه هو الحب الرفيع الذى يسمى على المادة وينفلت من قيودها للحاق بمبدع الجمال، وينبوع كل بهاء.

ولابن الفارض مذهب خاص فى الحب وهو أن يستسلم الإنسان للحب الإلهى استسلاما كاملا وأن يتلاشى فيه، فإن الموت فيه حياة والتلاشى نعيم وسعادة.

فلم تخطئ الكاتبة حين جاءت بهذا الوصف لتصف تلك الحالة التى تصف بها شاعرا وصوفيا فى حجم ابن الفارض. فهو رجل ينتمى لظروف خاصة أنعم الله تعالى بها عليه ليكون ذلك الصوفى الذى يقرض الشعر فى أثناء سياحته فى ملكوت الله تعالى.

وهو عندما كان يذهب إلى هنا وهناك فى جبل المقطم إنما كان يعد حاسته الشعرية لهذه المهمة الصعبة التى قد لا يثبت أمامها الكثير من الشعراء. فأغلب الشعر الصوفى قد كتبه شعراء الفارسية أمثال جامى ونظامى والرومى وهم فى عرف مواطنيهم أنبياء الشعر.. وإن كان لا نبي بعد محمد ﷺ.

وهناك قصائد كثيرة تذكر لابن الفارض إلا أن الكثيرين يذكرون الخمرية.

يقولون لى صفها فأنت بوصفها	خبير أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا	ونور ولا نار وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها	قديما ولا شكل هناك ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمة	بها احتجبت عن كل من لا له فهم

والتائية الكبرى تضم ٧٦٠ بيتا، وفن ابن الفارض كما تقول الكاتبة هو فن الشاعر الذى اضطرم فيه الحب اضطراما حتى أذهله أحيانا، وقد

أراد التعبير عن ذلك الحب والإفصاح عما يجول في نفسه منه، فكان كلامه شعرا تضيق بحوره وقوافيه عن اندفاع الحب وثورته وتقتصر الألفاظ عن تصوير حقيقته.

وابن الفارض لا يغفل عن الموسيقى الشعرية إلا نادرا، فهو يتغنى بشعره تغنيا وينظمه موقعا على أوتار نفسه فتتصاعد أنغام عذبة من الصور اللينة، وتألف الألفاظ والحروف وتتكرر بعضها تكرارا موسيقيا. تشبيهه بليغ.. لشخص يكتب موقعا بقلم مداده قلب صادق... فلا يدري أن أجمل الشعر هو أكذبه.

ربما يرى ابن الفارض سلطان العاشقين والذي كان يأتيه الملوك لزيارته في الجامع الأزهر أن أجمل الشعر هو ما يعبر عن وجدان وروح شفاقة تسجد لله تعالى في كل كلمة تكتبها.

فالشعر بالنسبة لابن الفارض الذي حظيت مصر بوجوده على أرضها صلاة خالصة لوجه الله تعالى. (٣٨)

ولاجدال فيما يمكن أن ينسب إلى قلم وعشق ابن الفارض الذي فاض مدادهما فملاً القلوب بالعشق للواحد القادر الذي لا يمكن مقارنة أى جمال أرضى بجماله، والذي رآه شاعر ومتصوف له قدره كابن الفارض بعيني الحقيقة التي لا يملكها غير العارفين وبقلب لا يفهم وقع نبضاته غير الواصلين، ولهذا فقد كان وكما وصفه الشيخ مصطفى عبد الرازق ظاهرة لامعة بين المتصوفة، بل ويعتبر الصوفي المصري الأول بلا منازع.

الورقة الخامسة

الليث إمام أهل مصر

عن مصر بوجود آل البيت بين أهلها... وشرفها بوجود العلم والعلماء في برها، ولكنى أتوقف هنا لأقول لكم أبرها الله تعالى بوجود الإمام الليث عاقد الحاجبين ابن مدينة أصفهان الإيرانية الفارسي الأصل ومولى بنى فهم عبد الرحمن بن خالد وابن قرية قلقشندة المصرية الذي تعرفه كل شوارع الحجاز وكان أعلم الناس بخلق الرسول محمد ﷺ. فهذا الإمام هو نفسه صاحب المسجد الشهير الذي يقع في نفس الشارع المسمى باسمه في سفح المقطم والذي كان في الأصل مصطبة كتب عليها:

هذا مقام الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبى الحارث المصري مفتى أهل مصر وأزيد عليها كلمة فأقول وإمام أهلها... ولكن لماذا نختص الإمام الليث بكل هذا الحديث؟

حدث في بر مصر

ولكى نعرف قصة الإمام الليث لابد من بداية من بر مصر وفي سنوات لم يفصلها حاجز زمني كبير بينها وبين فتح مصر. ونترك الإمام يحكى عن البداية فيقول:

قال لى بعض أهلى إنى ولدت سنة اثنتين وتسعين والذى أوقن إنى ولدت سنة أربع وتسعين هجرية وقد مات عمر بن عبد العزيز ولى سبع سنين ونحن من أهل أصبهان فاستوصوا بأهل أصبهان خيرا.

وفى كتاب «الليث بن سعد.. فقيه مصر» للعالم السيد أحمد خليل هناك تفسير لأصل الإمام الليث الذى حار فيه العلماء فأسلافه الأوائل كانوا من مدينة أصفهان الإيرانية وإنهم اشتهروا فى فتح مصر وإن عمرو بن العاص عندما اعتزم إنشاء مدينة الفسطاط قسمها إلى خطط خص أسلافه منها بخطة وأطلقوا عليها خطة الحمراء والثلث فهم ممن أسلموا وقتلوا من أجل مصر.

ويذكر القضاى إنهم حضروا فتح مصر واختلطوا بها واليههم ينسب الإمام ابن سعد الفهمى وأما مولد الإمام الليث فكان فى قلقشندة إحدى قرى القليوبية التى تبعد أميالا عن الفسطاط وكانت ومازالت جزءا من ريف مصر، فكان أصله طيبا ومنبته صالحا كصلاح الأرض والفلاحين وأحاديث المساء التى تدور فى بيوت المصريين وشجر الصفصاف والكافور الذى يرمى بظله هنا وهناك.

والليث على ما يبدو لم يكن بعيدا عن الأحاديث والحكاوى المصرية وقد اختلط كل هذا التسامح والسماحة المصرية بالقامة المرتفعة فى الأصول الفارسية ليصبح الصبى الذى عرف عنه الاستقامة والتعفف والذى بدأ فى طلب المعرفة بقراءة القرآن ورواية الحديث. وهو ما لم يخف عن الناس فى بر مصر الذين أبدوا إعجابهم به وهو ما زال شابا.

فكما يصفه جميل بن يزيد مولى شرحبيل بن حسنة أدركت الناس وكان الليث بن سعد حديث السن وكان بمصر عبيد الله بن جعفر وجعفر بن ربيعة والحارث بن يزيد ويزيد بن أبي حبيب وابن هبيرة وغيرهم من أهل مصر ومن قدم علينا من فقهاء المدينة وأنهم ليعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه على حداثة سنه. (٣٩)

ولا يستمر المقام كثيرا بمصر طلبا للعلم فيذهب إلى الحجاز وهو لا يتجاوز العشرين لياخذ الحديث عن العديد من المشايخ والزهاد ومنهم محمد بن شهاب وأبو الزبير وعطاء بن أبي رباح وقد أخذ عنهم الكثير. فالعلم هو ما يثق به القلب... ولهذا كان من الضروري الذهاب إلى هؤلاء العلماء وفي أماكنهم فيترك الليث مكة راحلا إلى العراق حيث تتملكه الرغبة الشديدة في محاكاة العلماء ومناظرتهم.

يقول أحد العلماء وهو عبد العزيز بن محمد: رأيت الليث بن سعد عند ربيعة يناظرهم في المسائل وقد فاق أهل الحلقة.

ويصل الليث إلى ما يرغب وتصل شهرته إلى الخليفة هارون الرشيد وقد وقع خلاف بينه وبين زوجته زبيدة قال هارون: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة ثم ندم.

فجمع الفقهاء فاختلفوا ثم كتب إلى البلدان فاستحضر علماءها إليه فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم فاختلفوا وبقي شيخ لم يتكلم وكان في آخر المجلس وهو الليث بن سعد قال: فسأله، قال: إذا خلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته. فصرفهم: فقال يدنيني أمير المؤمنين.

فأدناه فقال: أتكلم على الأمان؟ قال: نعم. فأمر بإحضار مصحف فأحضر فقال: تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ففعل فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [سورة الرحمن آية: ٤٦].

قال أمسك يا أمير المؤمنين قل والله قال: فاشتد ذلك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين الشرط أملك.

فقال: والله حتى فرغ اليمين قال: قل إنني أخاف مقام ربي، فقال ذلك، فقال يا أمير المؤمنين فهي جنتان وليست بجنة واحدة قال: فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر فقال له الرشيد: أحسنت وأمر له بالجوائز والخلع وأمر له بإقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره وصرفه مكرماً. (٤٠)

وهذه الفتوى ليست الوحيدة التي يمكن أن تمنحنا صورة من قريب لواقع الإمام الليث الاجتماعي وفهمه للحياة من حوله. فمما يتال عنه إنه كان أكثر من أفتى في شئون أهل الكتاب. وقد عرفت مصر منذ بداية دخول الإسلام وجود أهل الذمة الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية فكان لليث فتواه في المعاملات والعقود والزواج والذباح وإقامة ما هدم من الكنائس.

وهو ما يعني أن شخصية الليث كانت تحمل مبدأ الفهم واستيعاب ما يحدث في مصر. فلم يكن ممن يصدر عن فتواه في مجالس العلماء من وراء الحجرات بل كان يعيش الحياة مع أهله في مصر ويفهم كل ما يحدث حوله كواحد من أبناء هذا البلد.

. فقد كان مسلما وسطيا حنيفا يخاف على مصر والمصريين وكان أكثر ما يريبه أن يقعوا في فخ الأسطورة والخرافات التي يعشقونها والتي يمكن أن تختلط بالعلم فتفسده.

وقد كان في تحايله على أحد رواة الأسطورة مثالا على هذا فعندما استمع إلى أحد الذين يقصون على الناس القصص في المسجد وقد اختلط بالحديث الأساطير، أشار على الحاكى أن يلتزم الصدق ورجاحة العقل، فلا يبتذل نفسه في ذكر الأوهام وخلطها بالحقيقة ومنحها مظهرا يتفق مع الإسلام. وأرسل إليه في مقابل وفائه بالوعد ألف دينار واحتجزه عنده لضيافته حتى لا يترك له الفرصة في التماهى الذى يجعل الآخرين بكشفه هذه الأسرار والحكايات يعتبرونه وليا من أولياء الله الصالحين وكأنه سيدنا الخضر عليه السلام.

باختصار كان الليث يفهم الإحساس بالعقيدة الإسلامية عند المصريين ولهذا وضع أساس فتاوى مصرية خالصة وناقش الكثير من المسائل التي لم تناقش بمثل هذه الجرأة من قبل كمسائل المهر والرضاعة والقصر فى الصلاة ورؤية هلال رمضان وزكاة الزيتون.

وهكذا يبدو لليث فضائله إلا إن أكثر ما استوقف المؤرخين والفقهاء إلى جانب فتواه الراجحة هو كرمه الشديد وتفضله بعباء الله.

فكان مما ذكر الترمذى إن الليث كان يتصدق فى كل صلاة على ثلاثمائة مسكين وإنه لم يكن يرد سائلا وكان يطعم الناس الهرايس بعسل النحل فى الشتاء وفى الصيف بشيء من اللوز والسكر.

ويقول قتيبة بن سعيد قفلنا مع الليث من الإسكندرية ومعه ثلاث سفائن، سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه وقال أبو حاتم بن حبان: كان الليث لا يتردد إليه أحد إلا أدخله في جملة عياله.

وقال أشهب بن عبد العزيز: كان لليث أربعة مجالس كل يوم: مجلس لحوائج السلطان، ومجلس لأصحاب الحديث، ومجلس لأصحاب المسائل، ومجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده صغرت حاجته أو كبرت.(٤١).



مالك والشافعي

ويذكر في كثير من الكتب أن الليث كان معاصرا لمالك حتى إن البعض قد عقد بالفعل صلة بينهما فيقول سعيد بن أيوب: لو أن مالكا والليث اجتمعا لكان مالك عند الليث أبكم ولباع الليث مالكا فيمن يريد. بينما يقول ابن وهب قولاً أكثر منطقية وتخفيفاً من السخرية: لولا مالك بن أنس والليث بن سعد ما كنت أظن أن كل ما جاء في النبي ﷺ يعمل به.

ويقول أبو صالح كاتب الليث: كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا (أي احتجب) فقلنا: ليس يشبه هذا صاحبنا قال: فسمع مالك كلامنا فأمر بإدخالنا عليه فقال لنا: من صاحبكم؟ قلنا: الليث بن سعد. قال: تشبهونني برجل كتبت إليه في قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ إلينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا وبعنا الفضل بألف دينار. (٤٢)

وتظهر كتب التاريخ أن الليث بثرائه ومروءته يصل مالك بمائة دينار في كل سنة حتى لا تأخذه حوائج الحياة بعيداً عن العمل في فقه الحديث والسنة.

فما أراحه الليث هو تيسير الطريق لمالك وكأنه يدفع الأذى عن طريق مسلم عالم حيث إن الظروف كانت تضطر مالك إلى الاستدانة وكان الليث يسانده في كل أموره المادية والحياتية حتى يقال إنه أرسل ثلاثين جملاً لمالك عندما تزوجت ابنته.

وأما الشافعى فقد مهد الليث طريقه. وعند وصول الشافعى إلى مصر تعرف إلى فقه الليث وجعله فى كتابه الأخير: «الأم» الذى خطه بمصر قبل وفاته. ويضم مجمل فكره وأفضل ما كتب الشافعى فى حياته حتى إنه قد وقف يوما على ضريح الإمام الليث قال: لله درك يا إمام لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم: العلم والعمل والزهد والكرم. فالليث لم يكن ليتعصب حتى إن الناس قد فشلوا فى أن يأخذوا عليه تعصبا فقرأ بقراءة أهل المدينة وإن كان قد تلقى القراءة على نافع الذى يلتقى معه فى الأصل الفارسى والانتماء لمدينة أصفهان حتى لا يقال إنه يتعصب لبنى جنسه فالمسلمون سواسية، ولهذا وبسبب طبيعته السمحة كان الشافعى يقول إن الليث أفقه من مالك.

وفى الختام

ويأتى يوم الجمعة فى النصف الثانى من شعبان عام ٦٦٦هـ ليكون الليث قد زاد عن الثمانين عاما لتشهد مصر وفاته وجنازته والتى كما جاء فى «الدر المنظم فى زيارة الجبل المقطم» لم يكن هناك ما هو أعظم منها ولا أكثر خلقا.

فقد وقف الناس وعليهم الكآبة والحزن يعزون بعضهم البعض ويبكون. فقد كان عالما كريما، غزير العقل وحسن الفعل لا يرى مثله أبدا وكان كل جزء من بر مصر يعرفه وقد بكاه خط الحمراء ومكان صلاته وسفينته التى كانت تقله وأهله وخدمه من رشيد والإسكندرية إلى الفسطاط.

وتقول د/ سعاد ماهر إن أبا زيد المصرى وهو أحد كبار تجار مصر بنى على القبر حتى إذا ما جاء زمن الماليك جددت القبة فى عصر السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون وجدد الضريح فى آخر أيام الناصر فرج بن برقوق وكتب على القبة... هذا مقام السيد الإمام الليث بن سعد نفعا الله به آمين.

وتأتى امرأة دمشقية اسمها مرحبا بنت إبراهيم فى زمن السلطان المؤيد شيخ لتجدد المسجد وتقيم مئذنة للجامع.

ويقرر من بعدها الأمير يشبك بن مهدى وهو أحد أمراء الأشرف قايتباى - وله فتوحات كبيرة فى مجال العمارة الإسلامية ومنها القبة القدوية الشهيرة - إنشاء مئذنة فى الطرف الجنوبي الغربى.

ويستكمل سيد البنائين السلطان الغورى الذى تشهد له آثار الغورية كلها تجديد المسجد فى عام ١٥٠٥م وإضافة إيوان وباب كتب عليه بالنسخ المملوكى: «أمر بإنشاء هذا الباب الشريف من فضل الله تعالى سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الأشرف قنصوه الغورى عز نصره، وكان الفراغ من إنشاء هذا المكان فى مستهل رجب الفرد من سنة إحدى عشرة وتسعمائة».

ويجدهما فيما بعد الأمير موسى جوريجى ميرزا مستحفظان الذى يجدد المقصورة أيضا إلى جانب المسجد والقبة حتى نصل إلى عصر إسماعيل بك راتب فى زمن الأسرة العلوية الذى يجدد المسجد تجديدا شاملا ومهما فى السبعينيات من القرن التاسع عشر.

وأما زمننا الحال فقد شهدت فيه وبشكل شخصى تجديدا كبيرا لهذا المسجد المنسى والذي قد كان أهل الحى يتبركون به فيدفنون موتاهم إلى جانب قبر الإمام الليث وهو الأمر الذى قد عرض المكان للكثير من الإهمال.

وأما عمارة المسجد فتضم قبطين أولاهما للإمام الليث عبارة عن حجرة مربعة بها محرابان حجران محمولة على أربعة أعمدة رخامية لعلها الوحيدة الباقية من عمارة أبى يزيد المصرى وتحتها تركيبة رخامية حولها مقصورة خشبية مطعمة بالصدف ترجع إلى عمارة الأمير موسى جوريجى والأخرى صغيرة تضم محمد بن هارون الصوفى خادم الإمام وقبر شعيب ابنه.

و يتوقف عند ما يحفل به الأثر بالكثير من الكتابات العربية المنتشرة بين أجزائه ومنها أعلى الدخّل بعد البسملة (٤٣).

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأحزاب آية : ٢٣].

هذا مقام سيدنا ومولانا الإمام الليث بن سعد متعنا الله تعالى ببركته،
وجزاء على المقصورة من قصيدة البردة:

أمن تذكر جيران بذى سلم	مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة	وأومض البرق فى الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكفها همتا	وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أحسب الصب أن الحب منكتم	ما بين منسجم منه ومضطرم

لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل
فكيف تذكر حبا بعد ما شهدت
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى
نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى
يا لائئى فى الهوى العذرى معذرة
عدتك حالى لا سرى بمستقرر
محضتنى النصح لكن لست أسمع
إنى اتهمت نصيح الشيب فى عدل
ولا أرقى لذكر البان والعلم
به عليك عدول الدمع والسقم
مثل البهار على خديك والعنم
والحب يعترض اللذات بالألم
منى إليك ولو أنصفت لم تلم
عن الوشاة ولادائى بمنحسم
إن المحب عن العذال فى صمم
والشيب أبعد فى نصح عن التهم
(٤٤).

أما مقصورة الضريح فإن واجهاتها الأربع تشتمل نصها بعد البسملة:
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٥] إلى قوله عز وجل
﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٧].
وأما القبة فقد كتب عليها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [سورة الفتح آية: ١].
إلى قوله عز وجل ﴿وَنُصْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الفتح آية: ٣]. صدق
الله العظيم وصدق رسوله الكريم ﷺ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليماً كثيراً.

ولا غرابة فى أن يضم مسجد الإمام الليث كل هذه النصوص.. فهذه
عادة المعماريين فى بر مصر عندما يبنون ضريحاً لولى من أولياء الله
الصالحين. فمابالنا بالإمام الليث إمام أهل مصر الذى أهمل معاصروه
من تلاميذه تدوين الكثير من فتاويه المصرية فلم يوفوه حقه.

فالحقيقة إنه فى مصر تولد كل يوم معجزة جديدة فى الفقه والمعمار والهندسة والأدب والعلم فيضن عليهم الناس بالتذكّر.

وهو فى النهاية خطأ فادح لابد من تداركه حيث إنه فى الكثير من الأحيان يذهب أناس يمثلون تجارب كبرى وتضيع علينا فرصة الاحتفاظ بتراثهم كم هو الحال مع الإمام الليث.

وأما أبيات بردة البوصيرى التى كتبها المصريون على المقصورة فهى اختيار ذكى واعتذار منهم عن عدم مراعاتهم لحق هذا الشيخ الجليل فاختاروا أبياتا غزلية من بردة الإمام البوصيرى المباركة.

ففى البداية يتساءل الإمام البوصيرى فى بردته الشهيرة. وكما جاء فى شرح بردة المديح المباركة للإمام شرف الدين أبى عبد الله محمد البوصيرى لأسامة أبو خليل. عن سبب هذا الحال الذى عليه المحب من البكاء الشديد الذى أجهد العين وكان الدمع يختلط بالدم.. فهل حدث ذلك حينما تذكر جبرته فى المدينة المنورة من شدة الشوق.

فربما كانت الريح التى جاءت من ناحية المدينة المنورة هى من حرك هذه الأشواق أو لعله البرق الذى لمع والمسمى أضم.

فإذا لم يكن الشوق هو السبب فلماذا لا تكف العين عن الدمع. أكلما يحاول القلب أن يستعيد توازنه زاد جنونه. فالحب حقيقة لا يمكن إخفاؤها أو الاستهتار بها وسيعلن الدمع عنه دائما.

ويكشف البوصيرى عن مقصد الحب فى أبياته وهو سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وأما البان والعلم فهما موضعان بالقرب من مكة المكرمة.

فالحب لا يمكن إنكار إنه هو الدليل على وجود هذا البكاء الذى يبدو وكأنه بالفعل اختلط بالدم. فمن يزره خيال حبيبته يجافيه النوم ولا يستطيع الانتظار. فالحب شئ قهرى، فما بالناس بالحب المجرد لشخص الرسول الأكرم.

فإذا ذاعت حكايات الحب أصبحت مادة لهؤلاء الذين يتتبعون أخبار الآخرين والذين لا يعرفون حقيقة حال المحب. فهذا المحب لا يستمتع لنصائح الآخرين ولا يكثرث بمن يلومونه فالمحب لا يرى فى الآخرين الإخلاص حتى ولو كان الناصح ذلك المشيب الذى عركته خبرات الحياة.



الورقة السادسة

بئر يوسف

فى عمارة مصر وأثارها تكثر الروايات حول بئر يوسف الموجودة قبالة جامع الناصر محمد بالقلعة. وهذه البئر كانت تزورها النساء بل والرجال طلبا للبركة لأنهم كانوا يعتقدون أنها بئر سيدنا يوسف عليه السلام التى ألقى فيها فالتقطه أحد السيارة كما جاء فى سورة يوسف بالقرآن الكريم.

ولا أعرف لماذا يعتقد الناس أن هذه البئر هى نفسها البئر المذكورة. فالموجودة بالقلعة أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب «صلاح الدين الأيوبي». وترجع الكتب حقيقة حفرها وتشبيدها إلى وزيره الشهير بهاء الدين قراقوش الذى كثيرا ما تنذر به المصريون وما زالوا عندما يذكر الحكم المستبد فيضرب بحكم قراقوش مثلاً.

والبئر فى حقيقتها نحت فى الصخر لخرن المياه اللازمة لجميع مرافق القلعة كما تشير موسوعة الآثار الإسلامية والقبطية وهى تتكون من ثلاث طبقات يلتف حولها سلم حجرى حلزونى يضيق فى الطبقة الوسطى التى عملت فيها ساقية خشبية كانت تستخدم لرفع الماء. ويوجد بجوار كل طبقة من الطبقات عدة فتحات للتهوية والإنارة.

والحقيقة التى تذكرها كتب التاريخ أن مياه النيل كانت تصل إلى القلعة فى قناة يحملها سور صلاح الدين من الفسطاط إلى القلعة. فقد كان من المفترض أن يكون أكبر اعتماد على مياه البئر فى أوقات الشدة والحروب. ويقول المقرئى: هذه البئر من العجائب استنبطها قراقوش، وهذه البئر من عجائب الأبنية تدور البقر فى أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها. ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز وجميع ذلك فى حجر منحوت. (٤٥)

وبنظرة إلى عمارة القلعة نجد أنها من أهم آثار العصر الأيوبي الذى لم يصل عمرها إلى أعوامه المائة. فقد كانت الدولة الأيوبية من أقصر الدول عمرا فى بر مصر. إلا إنها مع هذا تعتبر دولة صاحبة بصمة كبيرة على حياة المصريين بل ويمكن اعتبارها بلا تردد علامة بارزة فى تاريخ مصر. فعندما جاء صلاح الدين إلى مصر تغيرت أحوال البلاد. فقد كان من الضرورى للبطل أن يكون بالفعل فارسا من الطراز الأول قبل أن يدخل حلبة الجهاد. وكانت مصر هى المكان فتغيرت من أجله وتغير من أجلها. فبشهادة التاريخ لم تكن المقدمات تنبئ بقدرة صلاح الدين للوصول إلى هذه المكانة المتميزة تاريخيا ولم تتوقع له أن يحقق كل هذه الأمجاد فهو ينتمى فى الأصل إلى أسرة حاكمة قيل إن لها أصولا كردية وقيل أيضا إنها فى الأصل تنحدر من قرية دوين فى أذربيجان. وقد انتقلت الأسرة إلى العراق حيث نزلت بتكريت ثم بغداد ثم دمشق حيث نشأ صلاح الدين.

ويأتى صلاح الدين إلى مصر فى معية عمه أسد الدين شيركوه الذى يستنصره الوزير شاور فى حربته مع الوزير ضرغام الذى كان قد استعان بالصلبيين. ويستتب الأمر لشيركوه ويرى الخليفة العاضد بالله الحديث السن أن شيركوه هو الرجل المناسب للوزارة. ويصبح شيركوه هو الوزير المناسب فى الوقت المناسب، ولكنه يموت بعد فترة أقصر من أن تعد.

فيقرر الخليفة العاضد بالله وإكراما لهذه العائلة أن يصدر قرارا بتوزيع صلاح الدين، ويستقر الوضع بشكل أفضل للناصر صلاح الدين بعد أن يفقد الصليبيون الكثير من قوتهم بعد موت الملك أمورى ملك بيت المقدس ويعتبر وجوده فى مصر فالأ حسنا لكل المصريين.

ويموت الخليفة العاضد بالله الذى كان فى حقيقة الأمر آخر الخلفاء الفاطميين ليملك صلاح الدين الأيوبى مصر والشام والحجاز واليمن، ولا يقتتل الناس من أجل بقاء الدولة الفاطمية التى كانت قد لفظت أنفاسها فى صمت، وكان الزمن قد أعلن وفاتها بعد أن عذمت فرسانها. فلم يبق من سيرتها فى مصر المحروسة سوى العديد من المساجد وأضرحة آل البيت.

فقد تتناول كتب التاريخ الأحوال فى بر مصر ولا تتوقف كثيرا أمام شعور المصريين تجاه هذا القائد الفذ الذى وضعت له الأقدار فى طريقهم خاصة إنه كان عليه تنظيم الداخل والخارج فى مواجهة السرطان الصليبي الذى كان قد استشرى فى آخر سنوات الفاطميين فى مصر.

وينذر صلاح الدين حياته لهذا الهدف. ويثبت للجميع حنكته كقائد من خلال سلسلة من المعارك الحربية التي تصيب أعداءه بالذهول. فممنذ زمن ليس بالقصير نسى الشرقيون هذه الروح القتالية الجماعية وجاء صلاح الدين ليجمع الناس من حوله وليتقدم بخطى ثابتة نحو تحرير الأرض العربية من أيدي سالبيها.

وتتتابع السنوات وصلاح الدين الأيوبي يعمل في مشروعه الخاص الذي كان في الأصل مشروعاً وحدوياً يقصد به جمع كلمة العرب والمسلمين لمحاربة الصليبيين. فقد فهم صلاح الدين أنه لا أمل في الانتصار إذا كان المسلمون برغم كثرة عددهم واتساع رقعة بلادهم لا يجتمعون على كلمة واحدة.

فمشكلة الحروب الصليبية سوف تتكرر في العالم الإسلامي إذا أصر الحكام على الانطواء والتقهر إلى الداخل، كما أن الخطر سيكون أكبر إذا ما أصرّوا على الاختلاف لتتحمل أوطانهم أوزارهم وتجد نفسها وحيدة في مواجهة الأخطار.

ربما يظن من يقرأ أن كل هذه الأشياء تبدو من البدهيات التي لا تحتاج تعلم أو توقف عندها إلا أن كرسى الحكم فيما يبدو يمثل نقطة تحول وإغواء من نوع خاص عند من يجلس عليه حتى إن الكثير من أصحاب النفوس الضعيفة ينسون مثل هذه البدهيات فمجاهدة النفس حرب كبيرة لا يعرفها إلا الواصلون والسالكون لطرق الخير.

فإذا ما صلح أمر الحاكم أصلح الله تعالى له بطانته وأرسل إليه خيرة البشر يساعدونه. وقد تحقق لصالح الدين الأيوبي كل هذا عندما أرسل إليه رجلين من خيرة الرجال وهما القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني اللذان أعطياه خبرة تجربتهما في الحياة والتي كانت كفيلة برفع أسهمه.

فقد يحدث أن تلتقى في كتب التاريخ بصانعي النجوم والشخصيات العظيمة الذين يظلون دائما على هامش سيرة النجم أو الشخص العظيم وقد كان هذان الرجلان مثلا حيا لهذه الحقيقة.

والغريب في قصة صلاح الدين ليس فقط شخصيتي القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني اللذين يعتبران الجنديين المجهولين في مسيرته.. وإن كان الرجلان حجة لنجاح الناصر صلاح الدين

والقاضي الفاضل هو ابن مدينة عسقلان حيث ولد ثم ذهب بعدها إلى الإسكندرية ثم القاهرة في أواخر زمن الدولة الفاطمية ليعمل كاتباً في ديوان الظاهر بالقاهرة. فلم يعمل بالقضاء كوالده وجده اللذين كانت نزاهتهما مضرب الأمثال.

فقد قرر القاضي الفاضل عدم اختيار هذا الطريق بعد أن وجد أن الكتابة هي أفضل الطرق ويلتقى بالناصر صلاح الدين فينبهر برسالته ويكتب من أجله الكثير من الخطب الحماسية والرسائل التي تؤلف قلوب الناس من حوله.

وتتطور علاقتهما فيصبح المستشار الأول لصلاح الدين والشخصية الأقرب خلف الستار الذي ينفعه بالكثير من النصائح التي يعمل بها صلاح الدين فيعترف لفرسانه بأنهم فى حقيقة الأمر لا يفتحون البلاد بسيوفهم بل بقلم القاضى الفاضل.

ويصفه العماد الأصفهاني بأنه رب القلم والبيان وصاحب البصيرة النفاذة والهدية المعجزة. وقد عاش لزمن بعد موت صلاح الدين وفيما لمبادئه حتى وافته المنية فى عام ٥٩٦هـ، ودفن إلى جوار الصالحين بجبل المقطم.

أما العماد الأصفهاني فهو الشخصية الأخرى صاحبة التأثير فى زمن صلاح الدين الأيوبي، ولد فى مدينة أصفهان الإيرانية ثم انتقل إلى بغداد حيث تلقى تعليما جيدا فى المدرسة النظامية وهو ما فتح أمامه الطريق للترقى حتى أصبح نائبا للوزير ابن هبيرة.

وبرغم أنه كان يعيش فى دمشق وفى معية نور الدين زنكى فإنه لا يلتقى بصلاح الدين الأيوبي إلا بعد أن عرفه عليه القاضى الفاضل.

ويعين صلاح الدين العماد الأصفهاني نائبا للقاضى الفاضل ويمتد نفوذه إلى نصح صلاح الدين الأيوبي بما يراه فى مصلحة الأمة لتنتهى حياته هو الآخر بعد موت صلاح الدين الأيوبي بعدة سنوات يتفرغ خلالها لعمله الأدبي والتصنيف فيتوفى عام ١٢٠١م، ويحسب لصلاح الدين أنه بالفعل نجح فى أن يطير فوق الأزمات بجناحي القاضى الفاضل والعماد الأصفهاني فيحقق ما لم يحققه غيره من قادة المسلمين فى زمنه.

أما القصة الأخرى فهي حطين التي اعتبرت معركة فاصلة في التاريخ العسكري الإسلامي. فعلى الرغم من أن الكثير من المعارك قد خاضها صلاح الدين فإن وجود قوات صليبية بهذا الحجم المؤثر ووجود قادة أوروبيين محنكين من أمثال ريتشارد قلب الأسد الذي كان هو الآخر أسطورة يذكرها الإنجليز إلى الآن كان يمكن ألا ينهى هذه المعركة لتستمر إلى ما لا نهاية.

فقد جاء ريتشارد إلى الشرق بعقلية المحارب، وأراد أن يثبت لنفسه أن ما يقاتل من أجله هو حقيقة وضرورة دينية. واستمر يرمى هذا المنطق ويتبناه حتى قتل في إحدى المعارك في أسبانيا.

وبعد سنوات من التصدى والمقاومة ترجح كفة صلاح الدين الذي لم يكن صلح الرملة الذي عقده مع الأوروبيين إلا تحقيقاً لأمله في الخروج من المأزق الذي فرض نفسه على أراضي العرب والمسلمين.

فمن المفيد أن نقرأ قصة حياة صلاح الدين الأيوبي كاملة وأن نبحث عن كتب تتناول هذه الفترة المبهرة من تاريخ الإسلام والمسلمين، في وقت كانت الأمة تستعد للنهوض على قدميها من جديد بعد أن أصاب النخر بعض عظامها وهو الأمر الذي لم تستسلم له أبداً بفضل رجال صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه.

إلا إننا نضطر في النهاية أن نتوقف عند نهاية القصة عندما ذهب صلاح الدين وهو في الخمسينيات من عمره ليودع مجموعة حجاج ذهبوا لأداء مناسك الحج وهو أمر لم يكن باليسير عليه وخاصة بعد أن نصحه

مستشاروه بعدم السفر للأراضى الحجازية لان هذا يمكن وبسهولة أن يعرضه لهجوم الفرنجة وأسرهم له فى أبسط تقدير.

وبرغم أنه مشهد متكرر إلا أن كل من رأى صلاح الدين يومها حكوا بأنه ذرف الدمع كما لم يحدث فى أى موقف فى حياته وأنه اهتز عاطفيا لهذا المنع المفروض عليه... أما ما حدث بعدها فلم يصدقه أحد فبعدها بأيام قليلة رحل الفارس عن الحياة وترجل عن فرسه بعد أن أدى مهمته فى هذه الحياة بنجاح مبهر.

وقد رحل فارس الفرسان ولم يحقق أمنيته الأقرب إلى قلبه وهى حج البيت لأنه لم يستطع إليه سبيلا... ولهذا نسألكم الفاتحة والدعاء لهذا الفارس.

ولكن ما الرابط بين بئر يوسف التى تنسب إلى صلاح الدين الأيوبي وقصة سيدنا يوسف عليه السلام. هذا ما لا أعرفه وأتمنى أن أجد الإجابة إذا كان يعرفها أحد.



الورقة السابعة

خلوة جاهين

أما صاحب هذا المسجد الغريب والجميل فى الوقت ذاته الذى يبدو على رأس جبل المقطم أمام مقام مولانا عمر بن الفارض سلطان العاشقين وإمام الصوفية فهو جاهين الخلوتى.

وقد يتعجب أى إنسان لهذا المسجد والقبّة المعلقة، ويتساءل بينه وبين نفسه عن سبب وجودها فى هذا المكان وهل هى منحوتة فى الصخر أم أنها مجرد بناء له شكل خادع.

وقبل أن يأخذنا خيالنا بعيداً نقرأ ما جاء عن هذه الخلوة التى تخص جمال الدين عبد الله نجل العارف بالله الشيخ جاهين بن عبد الله الخلوتى.

والغريب أن هذا العارف بالله تنتمى أصوله إلى بلد آخر، فهو ابن مدينة تبريز الإيرانية وقد قدم إلى مصر مملوكاً فى عهد السلطان الأشرف قايتباى. وإن لم تستهوه حياة الجندية فلم يحلم بالترقى فى القصور المملوكية فكانت عزلته بعيداً عن القيل والقال وحفظه للقرآن الكريم ومصاحبة العلماء هو كل ما يرغب فى هذه الحياة.

فما كان من السلطان الأشرف قايتباى إلا أن أعتقه، وهو المملوك القريب إلى نفسه ليعود مرة أخرى إلى تبريز ليقتلّمذ على يدى العارف

بأنه الشيخ عمر التبريزي ثم يعود إلى مصر طلباً لصحبة الشيخ محمد الدمرداش الذي كان من عمق ارتباطه به يسميه الناس باسمه حتى ترك كل شيء وذهب إلى جبل الأولياء ليحفر لنفسه وب نفسه قبراً.

ويقام بعد وفاته هذا المسجد الذي لم يبق منه غير واجهة حجرية واحدة وباب يعلوه قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة التوبة آية: ١٨].

ويقول الرحالة النابلسي كما جاء في «الخطط التوفيقية» لعلي باشا مبارك: دخلنا مزاره ورأينا مقامه في ذلك الجامع يطل على مزارات القرافة المباركة وفيه منبر ومحراب لإقامة صلاة الجمعة. وهناك ثلاثة قبور القبر الكبير قبر الشيخ جاهين وبجانبه قبر ولده الشيخ جمال الدين ثم قبر ولده الشيخ محمد جاهين فوقفنا هناك وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى.

وتعرض موسوعة «آثار القاهرة الإسلامية في العصر العثماني» لتفاصيل كثيرة لهذا المسجد الذي لم يتبق منه سوى واجهته كشاهد على خلوة هذا الصوفي الجليل.

فقد كان المكان في الأصل منشأة كبيرة تشبه الضاحية المعلقة بالجبل. وكانت كل تفاصيل الحياة اليومية كاملة بها فيوجد خزانات للمياه ومساكن ومرافق كاملة المنافع وهو ما يعنى فكرة الاكتفاء الذاتي.

ولاعجب فى انتقال الحياة إلى هذا المكان، فنحن فى النهاية فى جبل المقطم المبارك الذى اعتبر مكانا للعبادة والاختلاء بالذات منذ أيام الإسلام الأولى فى مصر.

«فالمساحة الهائلة» فيما بين مدينة القسطاط غربا وجبل المقطم شرقا مسرح واسع للمنشآت الدينية والجنائزية والترويحوية، حيث كانت القرافة الكبرى تحتل هذه المساحة، وتتصل بجبل المقطم الذى كان محلا معتبرا ذا قدسية وخاصة المواضع التى بسفح المقطم فإنها عمرت بالمنشآت الدينية المهمة، كما ضمت أراضى هذه البقاع أجساد أعداد كبيرة من مشاهير الصحابة والعلماء والأولياء على مر العصور بل دفن فيها أيضا عدد كبير من الأمراء وبعض السلاطين.

ونذكر ممن دفن فيها على سبيل المثال الصحابى الجليل سيدى عقبة بن عامر الجهنى والى مصر، والصحابى عمرو بن العاص والإمام الشافعى وأحمد بن طولون وطغج الإخشيدى والليث بن سعد والقاضى بكار بن قتيبة وابن حجر العسقلانى وذا النون المصرى وعمر بن الفاراض والفضل بن الفضيل وعز الدين بن عبد السلام والمظفر قطز ثم أخيرا إبراهيم باشا فى القرن التاسع عشر الميلادى.

وما زالت تلك البقعة مدفنا لكثير من الأمراء والخاصة والعامة إلى وقتنا هذا. أما الموقع الخاص بجامع جاهيين الخلوتى فله أهميته الخاصة إذ توجد حول هذا الجامع مواضع تاريخية مهمة منها جامع محمود الشهير ومشهد اليسع وروبيل إخوة يوسف عليه السلام.

ومنها العارض وهي مغارة فى الجبل عمرت بأمر الحاكم بأمر
الله وأنشئت فيها مئذنة، يقول المقرئى: وهى باقية إلى اليوم وتحت
العارض قبر الشيخ العارف عمر بن الفارض رحمه الله وقد قال القائل:
وقل السلام عليك يا ابن الفارض. (٤٦)

فلم يختار جاهين الخلوتى لتعبده إلا موقعا مباركا وكان جميع
رجال مصر الصالحين قد اتفقوا فيما بينهم على اللقاء فى المقطم أو
أن هناك فريضة مصرية تقضى بدفن كل من صلح حاله وقلبه ورضى من
الحياة بما قسمه له ربه سبحانه وتعالى فى هذا المكان ليلتقوا جميعا من
كل عصر فوق هذه الأرض المصرية المباركة.

ويعمد جاهين الخلوتى حالة حضارية فريدة إذ إنه فى الأصل من
أبناء تبريز وتتدفق فى عروقه الدماء التركية والفارسية ويعيش على
أرض إيرانية.

فهو واحد من أبناء فارس النجباء ولكن الصدفة وحدها هى التى
حملته إلى مصر وجعلته مملوكا للأشرف قايتباى ليجرى عليه ما
يجرى على غيره من المماليك.

إلا إن تركيبته الحضارية المتميزة قد جعلته ينظر إلى مصر بمنظور
مختلف. فلم يقنع بأن يكون مملوكا أو أن يعيش حياة المماليك لتكون
كل مهمته فى الحياة هى الحرب والاقتيال.

فهذه مصر تناديه بكل شوارعها وأزقتها وعلمائها ومساجدها
وناسها الذين يألفون الغريب إذا ما ثبتت حسن نواياه.

والحل هو العودة إلى البلاد للاستزادة من العلم ووضع الأقدام على الطريق الصحيح ثم العودة مرة أخرى إلى أرض المحروسة مصر، بعد أن يشهد العود لمتابعة الطريق الذى لم يكن يستطيع السير فيه دون استحضار تجربة بلاده.

ويعود جاهين إلى مصر بعد أن يحصل على تجربة التعلم فى بلاده ويقرر أن ينزل بالمقطم وفى هذا المكان المتواضع الذى قدره له الله سبحانه وتعالى فيحفر لنفسه قبراً ويستمر بالمقطم لمدة تصل إلى الثلاثين عاماً إلى أن توفاه الله تعالى وكأنه كان على موعد مع هذا الجبل الذى استقبل صلواته واعتزاله الحياة.

ومن يذهب إلى المقطم اليوم وفى نفس مكان جاهين الخلوتى يجد هذا البناء الضخم الذى يظهر منه جدرانه الأمامية فقط.

وبالنسبة للمئذنة فهى مئذنة عثمانية لا تختلف فى الكثير من تفاصيلها عن بقية المآذن العثمانية التى توجد على بر المحروسة من حيث التصميم، ولاتزال المئذنة موجودة بشكل ينبئ عن ماهية البناء الضخم. ويقال إن المسجد قد بنى فى الأساس بإشراف جاهين الخلواتى وأن هناك الكثير من الأجزاء فى المسجد تنتمى إلى عصور مختلفة.

ومحراب المسجد مبنى من الحجر النحيت ويحمل تاريخ البناء المنقوش ضمن النص النحوت على عتب الباب وهو سنة ٩٤٥هـ. ثم كسى بالرخام الملون الذى اختفى الآن.

والمئذنة المنفصلة يلاصقها بناء ضيق من الحجر به شباك كان ويوجد مبنى مواجه لباب المسجد نحو القبلة داخله قاعة مستطيلة حائطها الشرقى.

الجبل وإلى الشمال الشرقي من هذه القاعة تقع القبة الشاهقة المبنية بالطوب وبرقبة القبة شباكان واحد مفتوح والآخر مغلق على التوالي.

أما المبانى الحاملة لها فمبنية من أسفل بالحجر النحيت مثل مبانى القاعة بالخارج. وكان يصعد إلى القاعة العليا عن طريق درج يقع بطرف هذه القاعة من الغرب. ولهذا السلم شبابيك ضيقة تفتح أما الجهة الشمالية للسلم فقد تهدمت ثم انهار السلم فى النصف الثانى من الثمانينيات من القرن العشرين. (٤٧)

وعلى وجه الجبل يقوم برج ضخم مبنى بالحجر تعلوه أطلال راقبة على الجبل. ويدل ذلك على وجود ساقية تأخذ من البئر المقام عليها هذا الدرج ومبانى هذا البرج تذكرنا بمبانى العصر الأيوبى أو عصر المماليك البحرية.. عصر السلطان الظاهر بيبرس أو الناصر محمد بن قلاوون.

وصف تفصيلى قد يأخذنا إلى مقام العارف بالله جاهين الخلوتى وإن كنا لا نجد فيه سوى امتداد لفكرة جبل الأولياء. فهذا المقام ربما غاب عن الذاكرة المصرية إلا إنه يظل خالدا بموقعه فى المقطم جبل الأولياء الذى طوفنا به وإن لم ندخل من كل أبوابه. فهو ليس مجرد مكان بل تقرير كامل للهوية المصرية التى توجد كل حكاياتها تحت ثراه.

فمنذ جاء عمرو بن العاص فاتحا مصر وحتى زمننا هذا دفنت به الكثير من الروايات وأصحاب الروايات من المصريين والمتمصرين.

فهنا آل بيت النبى ﷺ... وهنا كبار الدعاة والمفكرين.. وهنا قادة العرب والمسلمين.. وهنا أبناء الأسرة المالكة. وأبناء الطبقة المتوسطة وأولاد البلد المصريين فألى الجميع تحية وسلام.

دقات على باب مصر الأيام المصرية لابن خلدون

هذا حديث آخر فارسه ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون والذي قد بلغ الثانية والخمسين من العمر وهم بزيارة القاهرة. فكتب يقول: «سألت صاحبنا قاضى القضاة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرئ كيف هذه القاهرة؟ قال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية فقال: كأنما انطلق أهلها من الحساب لكثرة أممهم وأمنهم العواقب وسألت الفقيه الكاتب أبا القاسم البرعى فقال: إن الذى يتخيله الإنسان فإنما رآه دون الصورة التى تخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها».

وهكذا يمكن القول إلا القاهرة... فبنص وصف ابن خلدون هى حاضرة الدنيا وبستان العلم ومحشر الأمم وإيوان الإسلام وكرسى الملك التى يبدو نيلها وكأنه نهر من الجنة فهى البلد الذى له مداه فى العمران واتساع الأحوال ومن يره لم يصدق زحام المارة والأسواق. وهى البلد التى استقرت فيها حياته وحتى الممات بعد أن عايش الكثير من الأمم والممالك.

هذه كلمات للمفكر العربى الكبير ابن خلدون يحكى عن مدينة القاهرة التى جاءها وهو فى الثانية والخمسين من العمر، واستقرت

حياته بها بعد أن عاش في الكثير من الأمم وخبر البلاد والمسالك وقد جاء بعد أن عقد العزم على استهلال القاهرة للاشتغال بالجامع الأزهر بداية من شهر رمضان عام ٨٧٤هـ. كما يؤكد المؤرخ القريري وابن حجر العسقلاني وابن تغربردي وكل من عاصروا سنواته المصرية.

وبداية قبل أن يأخذنا الحديث بعيدا فربما يفيد أن نتعرف إلى ابن خلدون من قرب وإن كنا بداية نسجل في هذه المساحة كلمة عن علم الاجتماع الذي ولد على يديه والذي كان كائنا محظوظا حقا بتجربة هذا الرجل العريضة في الحياة والتي لولاها لما أصبح هناك علم بهذا الاسم. ولد ابن خلدون في تونس عام ٧٢٣هـ. وكانت عائلته في الأصل تعيش في أشبيلية ثم نزحت بعد ذلك إلى سبتة ثم إلى تونس.

فكما يقول د/ الحسين يعقوبي في مقاله «بنو خلدون: من أشبيلية إلى تونس» يجمع أهل العلم أن الاسم «خلدون» المسبوق بابن ليس كنية لهم وإنما هو اسم الشهرة لخالد الداخل إلى الأندلس. وقد صار اليوم ينصرف إلى مؤلف العبر وهو اسم عربي مشتق من الخلد ومعناه الدوام، واسم خالد واسم أبيه عثمان قديمان. وهما مما كان يتسمى بهما العرب الخالص ويؤكد عروبتهما نسب سلالتهما العربية المرفوع حسب التعريف من وائل بن حجر إلى قحطان ويؤيدها انتماء أصلهما إلى الأخيار من قبيلة حضرموت أصيلة اليمن قاعدة ملوك حمير والتبابعة. (٤٨)

ولعل هذا النسب وفي رأى الحسين يعقوبي هو ما مهد له الطريق لكي يبحث دائما وطيلة حياته عن مكانة عالية. فابن خلدون كان دائما يخطب ود أصحاب المكانة الرفيعة من السياسيين وذوى الرئاسات العليا.

وهو موقف لا يختلف عليه الكثيرون ممن كتبوا عن ابن خلدون وبعضهم يقول إنه لم يكن مؤرخاً ولا عالم اجتماع أو أن هذا العلم قد ولد محفوظاً في بلاط السلطان وأن ابن خلدون نفسه كان يتقن لعبة السلطان. وعن هذا يفرد المقال نفسه أنباء أخرى عن أنه من السذاجة حينئذ أن يصدق المرء أن ارتحالهم عن المشرق كان مجرد تنفيذ لمقتضيات سياسة الوليد بن عبد الملك الهادفة إلى خلق توازن عرقى.

وإنما قد يكون دفع إليه الدم الجارى فى عروق القحطاني بحب الرئاسة والرغبة فى الاستقلال بإمارة. وهى نوازع حركت فى تلك الوهلة جميع الأسر العربية الأرسقراطية لطلب الرئاسة على أثر انتقال عاصمة الأندلس من أشبيلية إلى قرطبة.

إنها برزت بصورة أجلى فى المنافسة الشرسة التى أبداها بنو خلدون حىال بنى عبدة وبنى حجاج على ولاية قرمون وأشبيلية، وأما فكرة التوطن بسبقة بعد الرحيل عن أشبيلية فقد خامرت بنى خلدون منذ أمد إلا إنها ربما لم تلح عليهم إلا إثر إقبال الأمر إلى أبى عمرو وابن الجد وقتل عام ٦٤٤هـ. لتجرئه عام ٦٣٠هـ. على أثر طرد بيت بنى الحجاج أعتى منافسيهم على السلطة من أشبيلية إلى سبقة.

ولعل اضطراب الأحوال السياسية بها وتوالى أعوام الشدائد عليها مثل العام المشهور عند أهل سبقة بعام جنوة وهو عام ٦٣٣هـ. وقيل عام ٦٣٦هـ. وعام سبعة أى عام ٦٣٧هـ. وهو عام المجاعة هو ما أرجأ تنفيذ فكرة الهجرة مدة ناهزت عقدا من الزمن.

ومما لا شك فيه أن قرار الرحيل عن أشبيلية لم يتخذه بنو خلدون نتيجة الخشية من سوء العاقبة فقط وإنما كان أيضا لتوجس الشر من عواقب مواقفهم السياسية من تنافس ابن هود وابن الأحمر على السلطة من ناحية، ومن استشراف قلة ما صار يمسك ما بقي من رمق الأندلس بعد ما عمت الثورة كامل أرجائها وازدياد الضغط النصراني عليها من ناحية أخرى، وربما يعود تاريخ آخر عهدهم بأشبيلية إلى ما بعد مقتل ابن هود سنة ٦٣٥هـ. واستيلاء ابن الأحمر على غرناطة سنة ٦٣٦هـ. (٤٩)

وبرغم أن هذا الحديث حول نسب ابن خلدون ربما يعطينا فكرة عن حجم الأمواج المتلاطمة التي كانت تعيشها الأندلس والتي اعتبرت في كل مراحل تواجد المسلمين بها مثلا جيدا لتعايش أصحاب الديانات المختلفة إلا إنها وفيما يبدو كانت أيضا أرضا للتنافس لم يعرف له مثيل.

كما أنها كانت من أهم الكيانات التي لولاها لما استمرت مسيرة الاستعارة الأوروبية من العلوم الشرقية.

إلا إن هناك أسبابا أخرى لهذا السلوك الخلدوني الذي اتبعه ابن خلدون خلال حياته والذي جعله عالما بحياة المجتمعات يتلخص في رحلة حياته الطويلة والزاهرة بالأحداث والشخصيات المهمة التي قدر له الله تعالى أن يلتقى بهم.

فعندما بلغ ابن خلدون الثامنة عشرة اجتاح وباء الطاعون بلاد المسلمين حتى إنه وكما أشار د/ على عبد الواحد وافى فى كتابه: «عبد الرحمن بن خلدون» حياته وآثاره ومظاهر عبقريته أهلك فى يوم واحد بتونس ألفا ومائتى نسمة وبتلمسان بالجزائر سبعمائة نسمة. كما أنه أيضا وفى هذا العمر الصغير قد شهد هجرة معظم الأدباء والعلماء من تونس إلى المغرب الأقصى (٥٠).

والدخول إلى حياة ابن خلدون والتوقف عند تفاصيل تفاصيلها يشبه الدخول فى غمار البحر الهائج بلا خطة أو خبرة ولهذا فما يهمنى هو رحلته إلى القاهرة وهى مبتغى القصيد التى جعلته يرى عن قرب دولة المماليك وحكمهم فى مصر الذى كان حجر زاوية للقوة فى جنوب البحر المتوسط.

فهم كما قال عنهم فى كتابه «التعريف»: «أهل هذه الدولة التركية بمصر والشام معنيون بإنشاء المدارس لتدريس العلم والخوانق لإقامة رسوم الفقراء فى التخلق بآداب الصوفية السنية وفى مطارحة الأفكار ونوافل الصلوات أخذوا ذلك عن قبلهم فى الدول الخلافية (الخلافة) فيختطون مبانيها ويقفون الأراضى المغلة للإنفاق منها على طلبية العلم ومتدربى الفقراء وإن استفضل الريع شيئا عن ذلك جعلوه فى أعقابهم خوفا من الذرية الضعاف من العيلة (الفقراء) واقتدى بسنتهم فى ذلك من تحت أيديهم من أهالى الرياسة والثروة.

فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة وأصبحت معاشا للفقراء من الفقهاء والصوفية وكان ذاك من محاسن هذه الدولة التركية وآثارها الجميلة الخالدة. (٥١)

ويعيش ابن خلدون فى مصر متحليا بهذا المنطق الذى يجعله مقبولا من دولة المماليك ومن سلطانها برقوق الذى يدخل ابن خلدون إلى أرضه المصرية عقب عشرة أيام من توليه الحكم وبخطاب توصية يرشحه لنيل الحظوة من الحكام المماليك.

فابن خلدون بحكم خبرته فى دوائر السلطان يعرف كيف يستميل برقوق المملوك الجركسى الذى وصل إلى سدة الحكم معتمدا على مهاراته العقلية والحربية والذى يريد أن يحصل على ترضية نفسية ممثلة فى ولاء العالم ابن خلدون له. فيقبل برقوق بوجود ابن خلدون فى معيته ويكتب إلى سلطان المغرب يقول: «لقد أثر ابن خلدون الإقامة عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده بل تحببا إلينا وتقربا إلى خواطرننا بالجواهر النفيسة من ذاته الحسنة وصفاته الجميلة» (٥٢).

ويحدث ما يقربه أكثر من السلطان، حينما يغضب السلطان على قاضى قضاة المالكية جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان بن خير غضبا يطيح به ليجلس ابن خلدون على هذا المقعد الوثير الذى لا يجلس عليه إلا كبار العلماء والمفكرين.

ويتقاسم مع قضاة المذاهب الأخرى الحظوة لدى السلطان إلى أن يثور يلبغا الناصرى نائب حلب على برقوق وتنتهى الثورة بخلع السلطان الشرعى برقوق فيختل توازن ابن خلدون ويتوارى نجمه مع من توارى نجومهم ويحسب ابن خلدون من ضمن المقربين إلى برقوق فيفقد مكانته وتذهب قوته.

إلا إن هذا الحال لا يستمر طويلا حين ينجح برقوق بعدها فى استجماع قوته ويعود إلى عرشه ويعتبر فعل يلبغا الناصرى الثورى مجرد مؤامرة على السلطان وشرعية الحكم فيعود ويعود معه مجد ابن خلدون، وإن كان برغم نجاحه فى التخلص من آثار الماضى القريب الذى أخذ منه أكثر مما أضاف لا يستطيع أن يستعيد مكانته كاملة لدى برقوق وخاصة بعد أن فطن السلطان إلى أن ابن خلدون كان أحد الفقهاء الذين وقعوا منشورا ضد برقوق بإيعاز من يلبغا الناصرى.

والحقيقة إنه كان قد أرغم على هذا التوقيع وإن كانت حقيقة دوافعه غير واضحة. فإلى الآن لا يعرف أحد ما إذا كان ابن خلدون قد وقع على هذا المنشور بدافع الخوف من بطش يلبغا، أم إنه وقع عليه بدافع البحث الدائم عن السلطان وإيماننا منه بأن من «غلب ركب»! ويدفع ابن خلدون ثمن هذا التوقيع بعزله من وظيفة شيخ خانقاه بيبرس إلا إنه يعاد مرة أخرى إلى منصب قاضى قضاة المالكية الذى قد ترك مقعده لأربعة عشر عاما كاملة لكيلا يعتقد أحد أنه من الممكن لمخلوق مهما بلغت درجة ذكائه أن يصل إلى كل شىء.. فحتى ابن خلدون الذى نتفق على دهائه ودبلوماسيته الشديدة يترك السلطان لمدة أربعة عشر عاما ولا يقدر على شىء.

ولكى نفهم طبيعة الحياة المصرية فى هذا الوقت علينا أن نتعرف عن قرب إلى المماليك أو أصحاب الحكم الذين أسهب ابن خلدون فى وصف سلوكياتهم ومنهجهم والذين أصبحوا حكاما بعد أن زاد نفوذ الأتراك بعد ضعف الحكم العباسى.

وهناك تفسيرات تاريخية كثيرة لأصل نشأتهم نختار منها ما يعتقده أحمد مختار العبادى الباحث من كلية الآداب بجامعة الإسكندرية من أن أصل نشأتهم كان فى آسيا بعيدا عن القاهرة، وإن تأثروا فيما بعد بحياتهم على الأرض المصرية.

فالأصل فى وجودهم يعود «للدولة السامانية التى قامت ما وراء نهر جيحون واتخذت مدينة بخارى عاصمة لها وقد أكدت حرص ملوك هذه الدولة برغم أصلهم الفارسى على الجهاد فى وسط آسيا وجذب الممالك الأتراك والاهتمام بتربيتهم وإعدادهم حتى صار معظم جيوشهم منهم مثال ذلك ما قاله الملك نصر الثانى السامانى مخاطبا أمراء دولته: «اتخذوا الممالك وأحسنوا تربيتهم لأن التسلط على الممالك من عجز القدرة وإنما يجب الرفق بهم والتوسعة على نفقتهم وإطعامهم مما تأكلون».

كذلك أعطانا الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسى وصفا دقيقا باللغة الفارسية لهذا النظام التربوى الذى وضعه السامانيون لممالكهم فيقول: «إن ممالك السامانيين كانوا يرقون تدريجيا بناء على خدماتهم وشجاعتهم وليس اعتمادا على المحسوبية أو الجاه».

وتبدو عملية الترقية نمطية من مملوك صغير يمشى بجوار سيده المتطشى صهوة الخيل ثم الراكب لفرس دون سرج إلى أن يتم عامه الخامس. وبعدها يمنح ملابس أفضل ثم يحصل فى عامه السابع على خيمة وثلاثة من الرقيق.

وهكذا يختلف كل عام عن سبقة من الأعوام حتى يصبح أميراً في سن الخامسة والثلاثين. (٥٣)

إلا إن هذا النظام أضافت إليه مصر فيما بعد. فلا يمكن أن يحسب لهؤلاء الممالك أى وزن سياسى إذا ما أسقطنا تجربتهم العسكرية والسياسية فى مصر.

فهموت الصالح نجم الدين أيوب آخر الحكام الأيوبيين فى ليلة النصف من شعبان عام ٦٤٧هـ. بعد أن دافع عن أرض مصر للنهاية ضد قوات لويس التاسع وقدر للممالك أو القوة الجديدة التى استعان بها الملك الصالح أن تظهر وأن يحتلوا مكانة عظمى لم تكن متوقعة ليس فقط على الساحة المصرية ولكن على الساحة الإسلامية ككل.

ذلك بأن السلطان المملوكى الحربى قد وصل إلى مساحات لم يتوقعها أحد لهذه القوة الوليدة. والسبب وكما نعزى هو وجود مصر ضمن كيان ملكهم كنقطة انطلاق وقبول أساسية إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى. وهكذا انتشر الممالك فى ربوع مصر وتملكوا الجيش وأصبح هناك أمراء العشرة الذين يحكمون عشرة من العسكر وأمراء المائة حتى يصعد النظام إلى «أمير مائة مقدم ألف» ثم أمير طبلخانة ويقول القلقشندى: «أعلم أن كل أمير من أمراء المائة أو الطبلخانات سلطان مختصر فى أغلب أحواله... وتوصف البيوت فى دواوين الأمراء بالكريمة، فيقال البيوت الكريمة كما يقال فى بيوت السلطان البيوت الشريفة». (٥٤)

ولهذا وكما يؤكد د. قاسم عبده قاسم فى كتابه «عصر سلاطين المماليك» كان طبيعى أن تكون وظائف الدولة حكرا على أمراء المماليك. وهنا ينبغى أن نشير إلى حقيقة أن نظام الحكم المملوكى فى مصر وبلاد الشام كان نظاما طبقيًا فى علاقاته واتجاهاته.

وقد قسم عبد الرحمن بن خلدون المجتمع فى مصر فى عصر سلاطين المماليك إلى «سلطان ورعية» وهو ما يصدق فى تقديرنا على بلاد الشام أيضا. والراجح أن ابن خلدون يقصد بالسلطان الجهاز المملوكى الحاكم والفئات التى تدور فى فلكه من المصريين.

أما الرعية التى يقصدها ابن خلدون فهم المصريون بجميع فئاتهم وطوائفهم، ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة لأن ذلك كان أبعد ما يكون عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين عبيدا فى طفولتهم.

وفى تصورنا أن المجتمع المصرى والمجتمع الشامى فى عصر سلاطين المماليك كانا مجتمعين يقومان على بناء طبقي حاد.

فئة طبقة من الحكام العسكريين لهم كافة الحقوق والامتيازات ولهم حق الإدارة والحكم فضلا عن أن الموارد العامة من الأراضى الزراعية والراعى والمسايد والغابات والأحراش والمساحات المائية كانت بحوزتهم بحكم القوانين الإقطاعية التى نظمت العلاقات داخل الكيان الإقطاعى العسكرى الذى جسده دولة سلاطين المماليك». (٥٥)

يبدو أن دولة الماليك كانت قد أخذت فرصتها في الظهور والتبلور قبل أن يأتي ابن خلدون إلى مصر، بل إن عصر الماليك الجراكسة كان قد أخذ هو الآخر في البلورة وفرض نفسه على الساحة السياسية. فهؤلاء الجراكسة قد صعدت أسهمهم وأصبحت لهم السلطة بعد الماليك البحرية الأتراك برغم أن هذا الصعود لم يكن في حسابات المصريين أو الماليك البحرية الذين لم يظنوا في البداية أن استكثار السلطان المنصور قلاوون من الماليك الجراكسة الذين يسكنون شمال بحر قزوين وشرق البحر الأسود الذين كانوا في حقيقة الأمر أرخص الماليك ثمنا سوف يؤثر في معادلة الحكم.

ونضيف إلى هذا وجود مملوك كبرقوق أمكنه أن يوطد لهؤلاء مقعد الحكم. فقد استطاع برقوق بدهائه الاجتماعي والسياسي أن ينفذ إلى السلطة في مصر من نفس الباب الذي نفذ منه فيما بعد محمد على باشا أو محمد على الكبير. الذي يعتبر نقطة تحول في صياغة الدولة المصرية الحديثة. الذي يبدو أنه أطلع واستفاد من تجربة برقوق الذي اقتسم السلطة في مصر بعد مصرع السلطان شعبان مع شخص يدعى بركة.

وكان المصريون قد بلغ بهم الإحساس بالظلم والغبن مبلغا عظيما في ظل هذا الحكم المملوكي الذي كان يعتنى بتثبيت القوة وإقامة العمائر الإسلامية والحربية بغير الالتفات لمصلحة المصريين أهل مصر الحقيقيين الذين لجأوا في المقابل إلى سلاح النكته والسخرية في مواجهة هؤلاء الحكام فيقولون: «برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة».

حقا صدق المصريون وإن كان من نصب الشبكة على بر مصر هو برقوق وحده الذى استطاع برغم كل هذا العداء المصرى تجاهه والذى عبر عن نفسه فى الأزقة والحوارى المصرية أن يتجاوزه.

فمن البداية لم ييأس ورأى فى الورقة المصرية مكسبا فذهب يعطى للمصريين ويتقرب إليهم كما فعل محمد على باشا بعده بسنوات طويلة فاستجاب المصريون لمبادرته العطوف وقرروا الثورة على منافسه بركة لينفرد برقوق بحكم مصر محمولا على الأكتاف والأحلام المصرية.

إلا إن هذا لم يجعله يتجاهل شرعية الوصول إلى الحكم، فقرر أن يقيم على العرش صبيا كان لايزال فى الحادية عشرة من العمر، كان من الناحية الشرعية يحق له اعتلاء العرش كوسيلة تبلغه غاية ليقتراد بعدها أعوانه الطفل السلطان خارج حدود دار الحكم بالقلعة.

وعلى الجانب الآخر يبدو أن انفراد برقوق بالحكم لم يكن مقبولا أيضا من المماليك الأتراك الذين أحسوا بأن البساط يسحب من تحت أقدامهم. وأن عز الدولة المملوكية فى مصر ينسب لهم فى الأساس، وأنه لا يمكن وبأى حال تسليم مقاليد الحكم للجراكسة الذين كانوا يقفون فى أدنى السلم الاجتماعى المملوكى.

ومع هذا لم تفلح محاولات الناصرى، وعاد برقوق ليحقق ما خافه الأتراك من استيلاء على العرش وهبوط فى سلم التقاليد الفروسية المملوكية حيث لم ينجح الجراكسة فى الحفاظ على رباط الأستاذية الذى كان يجمع المماليك بعضهم ببعض.. فهم ناجحون كمقاتلين ولكن هذا النجاح يبدو نجاحا وقتيا إذا لم يجد له إطارا يدعمه وقاعدة تسمح له بالامتداد.

ولهذا أصبحت الفروسية المملوكية حالات فردية فمن شاء التزم بها ومن شاء تركها.. فالأمر سيان.

ونعود إلى ابن خلدون الذى قد خبر فى حياته الكثير من الأحداث السياسية، قبل أن يأتى إلى بر مصر، بدأت بعد تعيينه فى. قلم الكتاب» ثم صعوده السريع ليصبح كبير الأمراء بالديوان فى تونس ثم رحيله إلى فاس ودخوله السجن لعامين، ثم توليه منصب كاتب السر والإنشاء والقضاء ثم ذهابه إلى غرناطة وعمله كسفير يحمل الرسائل السياسية والثقافية المهمة إلى ملك قشتالة وغيرها من المحطات السياسية التى غيرت من حياة ابن خلدون وحياة الآخرين.

أما الاتهام الذى يواجه به ابن خلدون من أنه رجل عاش لنفسه ونجاحه وأنه بالفعل لم يكن يقصد أن يقدم للبشرية هذا العلم المفيد الذى غير من تاريخ العلوم الإنسانية والذى ظهر تحت اسم «علم الاجتماع» فهو اتهام قد لا يكون من المفيد إطلاقه على هذا الرجل الذى اعتبر داهية عصره السياسية الذى اتقن لعبة السلطان فى كل مكان حل عليه ضيفا. إذ إن تركيبته الدبلوماسية والعقلية كانت تمنحانه القدرة على شق الصفوف والوقوف فى الصف الأول عند كل سلطان متقدما على أهل كل بلدة حل عليها ضيفا أو ساكنا.

إلا إن من يقرأ السيرة الذاتية للمفكر الكبير ابن خلدون. والكلمة للكاتب مصطفى نبيل فى كتابه «سير ذاتية عربية» يلاحظ أن حياته تنقسم إلى مرحلتين، المرحلة الأولى قبل وصوله إلى مصر، والمرحلة الثانية بعد وصوله إليها.

فهو يروى فى المرحلة الاولى أصله ونسبه وأساتذته والكتب التى قرأها والوظائف التى شغلها واعتزاله وتأليف سفره العظيم كتاب «العبر» ليصل إلى المرحلة الثانية عندما يروى قصة رحيله إلى مصر عام ٧٨٤هـ - ١٣٨٢م. التى قضى فيها ما تبقى من حياته وخاض فيها تجاربه الجديدة فأضاف ونقح كتاب. العبر» وخط كتاب «التعريف» فى ضيعته بالفيوم.

فلم يستطع ابن خلدون طوال حياته الإفلات من تأثير قوتين متضادتين ولعه بالدرس والعلم من جانب وحبه للمنصب والجاه من جانب آخر، بدأ حياته دارسا ثم انتقل إلى العمل والسياسة ووصل إلى أعلى المناصب ولم يستطع أن يتخلى عن العلم.

فكان يعمل فى تدبير الملك صباحا ويلقى محاضراته عندما يأتى المساء ولا نجد فى سيرته الذاتية ما يذكر انهماكه فى شئون الحكم إلا ويعقبها بذكر حنينه إلى الاعتزال وطلب العلم حتى إنه كرر ذلك سبع مرات وهو يروى سيرته الذاتية.

ربما كان ذلك بسبب شغفه الشديد بمعرفة تفاصيل اللعبة السياسية التى لا يعرفها إلا من كان فى قلبها وجاء تنوع تجاربه من خلال عمله السياسى وطبيعة حياته الصاخبة، والتى استخرج من رحيقها سفره القيم. وربما انتقل إليه الحنين للعلم والسياسة من عائلته التى كانت تتقلب حسب قوله. بين رئاسة سلطانية ورئاسة علمية. (٥٦)

المهم أن أيامه المصرية لم تبخل عليه بالكثير من الخبرات التي لم يحصلها فقط من إلقاء دروس بالأزهر الشريف والمدرسة القمحية بالفسطاط والمدرسة الظاهرية في بين القصرين بحى الجمالية ومدرسة صرغتمش التي كانت درة المدارس في مصر المحروسة ولكن أيضا من الخبرات السياسية التي قدمتها له هذه الأرض.

ففى أربعة وعشرين عاما هى كل حياة ابن خلدون فى مصر ذهب ابن خلدون إلى أرض الحجاز ليؤدى فريضة الحج وذهب فى رحلة إلى مدينة القدس ثم ذهب فى رحلة ثالثة وهى رحلته الأشهر إلى دمشق حيث التقى تيمورلنك.

والحكاية أن تيمورلنك قائد التتار كان يقف عند أبواب مصر يريدھا ، ويمنعه عنها قوة برقوق ومماليكه التى وقفت كحائل دون تنفيذ مخططاته.

وعند موت برقوق شعر تيمورلنك بأن الفرصة الذهبية للاستيلاء على مصر قد حانت. فمن قبل لم يستطع التتار التقدم إلى مصر بفضل مقاومة قطز وبيبرس. كما أن التتار الأوائل الذين حاولوا من قبل الاستيلاء على مصر لم يكونوا من المسلمين. وانسحاب قوات المماليك قد جعلت الجميع ينتظر من يقوم بالمبادرة للدفاع عن مصر ودرء خطر التتار أولا عن الأراضى الدمشقية التى كانت خط الدفاع الأول عن مصر.

وهكذا لم يجد القضاة والفقهاء ملجأ سوى طلب الأمان من تيمورلنك وتدخل ابن خلدون فى الأمر بعد أن فرض عليه الواقع أن يتدخل فتدلى

من السور بحبل وأبلغ حاشية تيمورلنك بوجوده فقابله تيمور الذى أطلق عليه ابن خلدون لقب «الأثير الأعظم» ليلعب ابن خلدون لعبة السلطان والدبلوماسية الناعمة التى تمكنه من الوصول إلى كل غاياته والتى كانت فى الأصل السبب الرئيسى فى اتهامه بإتقان لعبة النفاق السلطانى التى يعرفها الكثير ممن عاشوا فى رحاب بلاط السلاطين والملوك فى كل عصر.

ويستطيع ابن خلدون أن يقنع تيمورلنك بما يريد ويجد فى احترامه للعلماء أرضية جاهزة، بعد أن يتأكد أن هذا المحارب يحترم العلماء والفقهاء حتى إن جنده عندما كانوا ينهبون مدينة أصفهان الإيرانية نهاهم عن التعرض للفقهاء.

فقد كان هناك نقطة تحسب لتيمور وفى الوقت نفسه تحسب عليه وهو أنه جعل وضع الترك متقدما على النظم المغولية والصينية فى منطقة آسيا الوسطى لأنه كان مسلما، إلا إنه فى الوقت نفسه لم يستطع أن يتخلص من فكرة الغازى الذى يحطم كل شىء فى طريقه ويقتلع الأخضر واليابس فى سبيل تحقيق فكرة السيطرة.

فما أراه لم يكن إلا تحريفا لما فعله من قبل جنكيز خان الذى كان ووفقا للتصور المغولى فاتح العالم ولكن كيف كان هذا العالم وما ثمن هذا الفتح؟ هذا سؤال يجيب عنه كل من يأتى إلى الدنيا وضمن قوانينه الشخصية الاقتتال من أجل مبدأ أو على النقيض الاقتتال من أجل مكسب.

ومن هذا المنطلق كان تيمورلنك يرى إنه جاء لهذه البلاد فاتحا ومخلصا لها من قبضة السلطان الغاشمة ولهذا لم يكن يلتفت كثيرا إلى آلاف القتلى الذين كان يتعثر جواده الجامح في جثثهم. فموت هؤلاء رحمة وتخليص لهم من حياة صعبة قد عاشوها في ظل السلطان الظالم . ولاعجب في هذا فهي فكرة متكررة في تاريخ الأمم وليست بجديدة وتُستدعى في كل عصر وزمان ومكان.

فكما يقول ابن خلدون: «فزدت في نفسي كلاما أخاطبه به وأتلف بتنظيم أحواله وملكه يا مولانا الأمير لقد شرفت بحضورى ملك الأنام، وأحييت بتواريخى ما مات لهم من الأيام ورأيت من الملوك فلانا وفلانا وشهدت مشارق الأرض ومغاربها وخالطت في كل بقعة أميرها ونائبها ولكن لله المنّة، إذ امتد بهى زمانى ومنّ الله على بأن أحيانى حتى رأيت من هو الملك فى الحقيقة والمسلك شريعة السلطنة على الطريقة فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولّى الفخر والشرف فاهتز تيمور عجباً وكاد يرقص طرباً وأقبل يوجه الخطاب إليه وعول فى ذلك دون الكل عليه، وسأله عن ملوك الغرب وأخبارها وأيام دولها وآثارها، فقص عليه من ذلك ما خرع عقله وخلب لبه وسلبه». (٥٧)

وبهذا الأسلوب وجد الجميع مأخذ على ابن خلدون لهذا التودد تجاه رجل يراه الناس متوحشا همجيا محطما للقواعد الحضارية التي تحكم اللعبة السياسية.

فمن وجهة النظر الأخلاقية يرى المؤرخون أنه لم يكن لابن خلدون أن يطلق على تيمور لك لقب «الأثير الأعظم» أو أن يقدم هدايا كالمصحف الشريف وسجادة الصلاة ونسخة من قصيدة البردة للبوصيرى مع بعض الحلويات المصرية.

فتيمور لك وبأى حال لا يمكن أن يكون سلطان الدنيا ولا هو الشخص الذى ينتظره عالم كابن خلدون لأكثر من أربعين عاما لكى يقابله.

فهل كان يستوجب من ابن خلدون إعلان كل هذا التودد والنفاق بتشبيهه بمبعوث العناية الإلهية لتخليص الشعوب من ظلم حكامها !.

فتيمور قد دخل دمشق برغم كل شىء ونكل بأهلها فى وقت كان ابن خلدون يحكى له عن بلاده وأصل عائلته بالمغرب. وهو ما يجعل البعض يرى أن ما حدث بين تيمور وابن خلدون يحسب للأخير برغم كل شىء لأنه عرف كيف يتعامل مع هذا الهمجى الذى تصور أن الناس سوف تقبله طالما دخل فى حظيرة الإسلام وسوف تغفر له توسعاته التى اعتبرت مذابح وحروباً لم ينج منها شيخ ولا طفل ولا امرأة.

ويستمر ابن خلدون فى الحكى فيقول: فزدت فى نفسى كلاماً أخاطبه به، وأتلطف بتنظيم أحواله وملكه وهو يعرف ماذا جرى عندما سأل تيمور العلماء والفقهاء فى حلب قتل منا ومنكم أمس فأى فريقين هم الشهداء؟ قتلانا أم قتلاكم؟ فأجاب أحد علماء حلب هذا سؤال سئل عنه النبى ﷺ وأجاب عندما قدم أعرابى إلى الرسول ﷺ وقال رسول الله إن الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليرى مكانه فأينا فى سبيل الله؟

فقال الرسول ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو شهيد.
فقال تيمور : جيد جيد. (٥٨)

المهم أن هذه المهمة قد انتهت كما ينتهى كل شىء فى الحياة سواء كان حلوا أو مرا ، وأن الأمر كان كله صعبا حتى إنه فى رحلة العودة تعرض ابن خلدون للسرقة والنهب وهو فى طريقة إلى بر مصر.

والمهم أيضا أن هذا الخطر قد تداركه فرج بن برقوق عندما استطاع أن ينهى العداء بينه وبين تيمور بوصولهما إلى حل مقنع ولكلمة سواء بينهما. وأما ابن خلدون فقد استمرت حياته المصرية تسير بنعومة فلم تتوقف الحياة به كثيرا عند مواقف فارقة حتى وافته المنية فى مصر فى السادس والعشرين من رمضان عام ٨٠٨هـ. وهو ما وافق السادس عشر من مارس عام ١٤٠٦م ليدفن فى مقبرة الصوفية عند باب النصر بالقاهرة التاريخية.

وبمرور الوقت وصل ابن خلدون إلى نفس الحالة من التفوق فى أواخر أيامه فى مصر مثلما حدث للإمام الشافعى وآخرين غيره.. فلكى تصل إلى درجة مقبولة من فهم الحياة لابد لك أن تلتقى بالمصريين وتعيش فى بر مصر... مجرد فكرة مصرية.



زوابع أمشير

الآن فى زمن القرن الرابع الهجرى وتحديدًا فى عام ٣٤٦هـ وفى نحن مدينة الفسطاط التى كانت أول مستقر للمسلمين فى مصر عندما وفد إليها وللمرة الأولى أكبر شعراء العربية أبو الطيب المتنبى لتحقيق طموح لم يقدر عليه فى غير بر مصر.

فهذا ما توقعه وحلم به ولكن لا بد أولاً قبل أن ندخل فى لب الحكاية أن نفهم أن الأحداث تدور بعد فترة ليست بالقصيرة من نشأة مدينة الفسطاط أول حاضرة للمسلمين على أرض مصر التى اختارها عمرو بن العاص لتكون أول عاصمة.

فقد انتهت معارك السيف الفاتحة لتبدأ معارك أخرى للتعلم بين الأدباء والشعراء ودخول شاعر كالتنبنى فى هذا التوقيت بالتأكيد سوف يشعل معارك أدبية وفكرية لم تكن تخطر على بال.

وإن كان دخوله تحت حماية الإخشيد يثير هو الآخر العديد من التساؤلات فممن كان المتنبنى يخاف؟

أوليس هو الشاعر الذى تهتز له الدواوين والمجالس وهو صاحب القامة الشعرية التى لم يستطع أحد من قبله أو بعده أن يطاولها؟ أوليست أيامه هى أفضل أيام الشعر العربى؟

خواطر وتساؤلات إلا أن الحقيقة تبدو في الكثير من الأحيان أغرب من الخيال. فالمتنبى من حال الأصل هو ابن بيئة فقيرة وكان والده يعمل سقاء في العراق. وكانت كل متعته في الحياة تكمن في التنقل بين مجالس الأدباء والعلماء.

وبرغم بدايته المتمربة على السلطة ورغبته في العيش مع القرامطة الذين اعتبروا من الخارجين على سياسة ونظام الحكم في الدولة العباسية فإنه بعد فترة ليست بالبعيدة يصبح الشاعر المالح في القصور والديار، وهو ليس بالشيء المستغرب في شخصية المتنبى التي كانت مليئة بالعديد من المتناقضات.

وتتغير حياته المليئة بالأحداث فيذهب إلى الشام ويسجنه أمير حمص بسبب وشاية اعتبر من أجلها أن حظه من أنكد الحظوظ. إلا إنه انطلق بعدها ليدخل بلاط سيف الدولة الحمداني وليكتب قصيدته الدالية الشهيرة التي يقول في مطلعها:

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الضرب في العدا

ويقال إن المتنبى بشعره قد وصل في بلاط سيف الدولة لقد لم يبلغه شاعر، وإنه قد وصل إلى أعلى قمة في الشعر العربي جعلته يتجاوز بكلماته كل الأسقف والحواسط بلا اكتراث. فالمديح قوى ربما أقوى بكثير من أن نضع له حدودا والمتنبى لا يقف عند حدود شخص ولا حدود باب.

فلما جاءت ليلة من الليالى أقصته فيها وشايات القصر كان الرحيل إلى مصر بابا آخر يطرق، وربما ظن البعض أن المتنبي يأتى إلى الفسطاط ليعارض وينافس الشعراء فى الليالى المقمرة فى جلساتهم الأدبية بمكان غير بعيد عن النيل ليحكم على قصائد "الديارات" وهو الفن الذى أبدعه المصريون، حيث كان الشعراء يخرجون إلى الديار المحيطة بالفسطاط لينشدوا شعرا مصريا خالصا وليحكموا على الأيام المصرية والنيل والقصب والقمح وزمن التحريق والفيضان وبرودة طوبة وزوابع أمشير أحد أشهر فصول الزراعة المصرية.

إلا أن مجيء المتنبي بكل ما يحمله من اعتداد بنفسه لم يكن للدخول فى منافسة مع هذا ولا ذاك فكل ما أراد ولاية يحكمها ويحصل على زعامتها كما حصل على زعامة الشعر، خاصة أن الرياح هادئة فى مصر والحكم رشيد يقدر الشعر والشعراء.

فقد كان أمراء الدولة الإخشيدية فى مصر يحبون الشعر، ومنهم أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد صاحب المعرفة بالعربية والفقه والمؤلفات الكثيرة وأنور جور بن الإخشيد صديق سيبويه المصرى. وأخيرا كافور الإخشيدى العبد الذى حكم مصر وأمر بعشرين ألف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية.

فهكذا يتحقق المراد وتأتى الرياح بما تشتهى السفن، ويحصل المتنبي على ما يريد، فيذهب إلى كافور مادحا ويقف أمامه ليقول:

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله فإنى أغنى منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار فى زماننا ونفسى على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تنطبى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ويقف المتنبى لينتظر الرد والولاية التى تمناها من أعماق قلبه.. إلا
أن انتظاره لا يطول فكافور يسمعه قوله ورأيه صريحا..

فكافور يرفض توليته ولاية، لأن المتنبى على ما هو عليه يحدث
نفسه بما يحدث ويتصور فى نفسه العزة. فإن أعطاه الولاية التى يحلم
بها من يطيقه من الناس؟!!

ويقع كلام كافور حسرة على قلب المتنبى الذى تمنى وتمنى وفتحت
له أحلامه الأبواب. إلا أن لحظات وربما ساعات الحسرة لم تلبث
أن انقلبت لإحساس بأنه غدر به وأهينت كرامته فلا يجد أمامه إلا
موهبتة لترد عنه الإساءة. فيقف بعيدا عن أبواب كافور ليقول:

لاتشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن يسيئنى فيه عبد وهو محمود
ويقول أيضا:

تظن ابتساماتى رجاء وغبطة وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبني رجلاك فى الفعل إننى رأيته ذا نعل إذا كنت حافيا
وانك لا تدري ألونك أسود من الجهل أم قد صار أبيض صافيا؟
ولولا فضول الناس جئتكم مادحا بما كنت فى سرى به لك هاجيا

ويترك المتنبي مصر ساخطا.. فكافور وإن بلغ من العلم ما بلغ فلم يكن يحمل من شيمة العطاء التي اعتقدها المتنبي فيه حتى وإن كانت مائتته تحمل في اليوم كما يقول المؤرخ أبو المحاسن مائة خروف كبير ومائة خروف صغير ومائة وخمسين إوزة وخمسمائة دجاجة وألف زوج من الحمام ومائة صحن من الحلوى سعة كل صحن عشرة أرتال إلا أن كل هذا لا يغير من طباعه شيئا.

أما مجتمع الفساطط الذي لم يكثرث المتنبي به كثيرا أمام طموحاته فقد رفضه هو الآخر عندما نقده سيبويه المصري على مرأى من الجميع ، فقال إنه لا يحسن اختيار كلمات أشعاره والدليل أنه يقول :

من نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد
فكان من الأفضل أن يقول :

من نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من مداراته بد
ويخرج المتنبي من مصر ولكن لا شيء يتغير من عاداته ولا من عادات كافور الذي هجاه. فبعد مصر يذهب ليمدح ابن العميد في بلاد فارس ثم عضد الدولة ثم المعز لدين الله الفاطمي.

ومن جهته لا يتغير كافور الذي لم يحب شاعرا كما أحب الشاعر محمد عاصم الذي كتب فيه مادحا بعد أن ضرب زلزال عظيم مصر.

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها لكنها رققت من عدله طربا

صحيح أن محمد عاصم لا يساوى أو يوازى شيئا فى قمة المتنبى ولكن الناس فيما يعشقون مذاهب، والمشكلة أن المتنبى قد نسى أن كل ما على التراب إلى التراب. فهو لم يفهم شيئا من الحياة فى بر مصر، ولم يتصور أن ما يفعله كافور معه مجرد زوابع أمشير التى تواكب أخصب فصول الزراعة المصرية.

ربما لو كان قد انتظر لتغير الحال.. ولكن ماذا نفعل للمتنبى الذى لم يفهم مصر ولا برد طوبة وزوابع أمشير؟

ويبقى السؤال الذى يفرض نفسه... وهو ما الذى كان سيحدث لو حصل المتنبى على ولاية كما كان يحلم؟

هل كان سيتترك الشعر فى سبيل السياسة وشئون الحكم ليرى عدوا له ما من صداقته بد؟

المهم إن المتنبى بقى شاعرا وإن مصر كانت إحدى تجاربه وإن حياته كانت غريبة وانتهت بحادث غامض كما بدأت.

والمهم أيضا أن حكاية كافور قد انتهت نهاية أخرى، فبعد أن ترك المتنبى مصر جاء الدور على كافور.

فهذا العبد الذى بدأت قصته عندما اشتراه أبو بكر بن طنج الإخشيد من أحد البيوت المصرية وترك له الباب مفتوحا على مصراعيه لكى يصعد فى المناصب وينال ثقته الكاملة حتى استطاع أن يصل إلى سدة الحكم المصرى كانت له قصة عجيبة.

فبعد أن مات أبو بكر الإخشيد الذى آلت إليه مصر فى عصر مضطرب حاول سيف الدولة الحمدانى أن يأتى إلى البلاد غازيا ولكن كافور انتصر عليه انتصارا أجبره على التراجع مرة أخرى إلى حدود بلاده.

واستطاع كافور فيما استطاع أن يقنع الخليفة العباسى فى بغداد - الذى كان قد رضى أسلافه بوجود دويلات منفردة داخل كيان الدولة الإسلامية. بوجود الابن أنجور الإخشيدى على رأس مصر تحت رعاية الأستاذ كافور لصغر سنه. ليصبح للصغير القدرة والمصداقية على حكم مصر وبلاد الشام ومكة المكرمة والمدينة المنورة.

إلا إن الصغير لابد له أن يكبر وأن يضيق بسلطة العبد كافور الذى لا يصح له البقاء على عرش مصر ليمنح ويمنع. فيقرر الخروج إليه فى مواجهة حربية إلا إن عائلته وخاصة أمه تخشى عليه من الفشل أمام الرجل الذى أصبح أستاذا وأصبحت الأمور فى مصر ملك يمينه فيقررا التصالح على أن ينفرد الأستاذ بالحكم مقابل أن يحتفظ أنجور بحياته ، وهو ما عجل بموت أنجور الذى لا يعرف إلى الآن إذا ما كان بالفعل قد مات كمدا أم أن العبد كافور قد أعد له هذه النهاية بدس السم فى طعامه.

إلا إن الأمر لا يخلو من تناقضات... فبموت أنجور لا يخلو كرسى السلطة من الأخ الأصغر لأنجور وهو أبو الحسن على بن الإخشيد الذى قد أصابه هو الآخر نفس اللعنة التى أصابت أخاه فأصبح وبفضل مؤامرات

الأستاذ أسيرا فى قصره مقابل أربعمائة ألف دينار يتقاضاها سنويا على أن يترك له الخيار هذه المرة فى إنفاق المبلغ كاملا بالطريقة التى يرغبها، وأن يمنح من يمنح ويمنع عن يمنح.

ويصاب أبو الحسن بداء الموت السريع مثل أخيه لأسباب غير مفهومة، وتبدو عائلة الإخشيد الذى كان يوما من أعظم القادة فى الدولة الإسلامية عائلة تتساقط فروعها بطريقة سريعة لدرجة أن شبابها قد يعاجله الموت وهو مازال فى العشرينيات أو الثلاثينيات من العمر فى أكبر تقدير.

ولا يجد كافور فى نفسه حرجا فى أن يطلب من الخليفة العباسى أن يعينه واليا على مصر التى عدت حكامها، ويستجيب الخليفة لطلب كافور الذى تحمل كل هذه الأحزان وحده مع أبناء الإخشيد إلا أن القرامطة الذين ينظرون إلى الأمر من طرف خفى لم يكونوا ليفوتوا فرصة الانقضاض على بلاد الشام. كما أنهم وكما يقول د/ حسن إبراهيم حسن فى كتابه «تاريخ الدولة الفاطمية» قد قبضوا على قافلة مصرية كبيرة تحتوى على عشرين ألف جمل كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج فى عام ٣٥٥هـ. كما وقعت بمصر زلازل مروعة وشبت نيران هائلة دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل الفسطاط، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة وعاث فى البلاد فسادا فى البلاد الواقعة بين الشلال الأول وأخميم فأحرق بعض المدن وقتل أهلها بالسيف ونهب أموالهم.

وأما أشد هذه الأهوال فكان انخفاض ماء النيل. ففي أواخر عهد الدولة الإخشيدية انخفض النيل انخفاضاً دام تسع سنين في الفترة ما بين عامي ٣٥١ و ٣٦٠ هـ وبقي حتى أيام الفاطميين، وقد قاست البلاد الأمرين مما أصابها من القحط والوباء واشتد الغلاء وندر وجود القمح، وفشا الموت بحالة عجز الناس معه عن تكفين الموتى ودفنهم.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن عدد الموتى بلغ ستمائة ألف، وأنه كان يلقي بجثثهم في النيل لكثرتها. وقد ولد انخفاض النيل اضطراب الأعمال الحكومية وانتشار المجاعات والأوبئة. فنهبت المحاصيل وعم السلب والنهب، حتى إن كافور لم يستطع أن يدفع أرزاق الجند - وكانوا من الأتراك والروم. فثاروا عليه، ولعل ذلك مما دفع لينبول في كتابه تاريخ مصر في العصور الوسطى

إلى القول بأن «كافور كان بلا شك خادماً موفقاً أكثر منه قائداً ناجحاً».

History of Egypt in the Middle Ages

ويبدو أن رأى لينبول في هذا الموقع حصيف، حيث لا يختلف اثنان على أن كافور قد بدا وخاصة في نهاية حياته خادماً أكثر منه قائداً ناجحاً.

فالكثير من الشواهد تؤكد ذلك خاصة إنه قد تحول بولائه شطر المغرب العربي. فقد ترك حظيرة الدولة العباسية التي أعطته فرصته الكبرى في الانفراد بالحكم لمدة تزيد على العامين بعد أن رأى قوة الفاطميين، وإن كان التاريخ يذكر أنه استمر فعلياً ولأكثر من عشرين عاماً يحكم مصر وإن كان هذا الحكم متدنّياً بحكم الإخشيديين.

فلم يكن يخفى على أحد فى بر مصر أو فى أرض من بلاد المسلمين أن الرجل يحكم مصر بمهارة وسلاسة لسنوات طويلة. وأما مبعث هذه المهارة فلأنه لم يستطع فقط أن يتولى حكم مصر ولكنه أيضا نجح فى إدارة الشؤون المصرية.

فالرجل لم يسمع فى عهده صوتا عاليا يطالبه بالرحيل بالمنطق المصرى ولم يسمع فى عصره أكثر من نكات مصرية على هذا العبد الذى ملك أرض مصر وتفوق على سادته.

فكما يقول أبو المحاسن فى «النجوم الزاهرة» فقد زاد ملكه على ملك مولاه الإخشيد وكان كثير الخلع والهبات، خبيرا بالسياسة، فطنا ذكيا، جيد العقل داهية. كان يهادن صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويذارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر(٥٩).

ولا يعرف إلى الآن كيف أدار كافور الأمر ولا كيف أتقن لعبة السلطان وسط هذه الأمواج الهادرة. فخطر القرامطة الذين يريدون الانقضاض على الشام والمجاعات التى هددت مصر وحالة التحاريق والجذب الشديد الذى أصاب الأرض تقف جميعا فى خندق واحد ضد حكمه. إلا إن الأخطر فى رأى كان خلع عباءة السلطان العباسى وارتدائه عباءة الحكم الفاطمى.

فقد كانت محاولة المعز لدين الله الفاطمى غزو مصر هى القشة التى قصمت ظهر البعير. وإن كان ما حدث حقا أن كافور قد نجح فى

البداية أن يستدفع هذا الخطر الفاطمى وأن يلقى عدوه عند الواحات ولكنه بعد ذلك عاد وقبل الدعوات الفاطمية ومحاولات الاسترضاء التى جعلته يدخل فى الحظيرة الفاطمية وبكامل إرادته، ولكن هل كانت هذه إرادته حقاً.. نشك فى ذلك ولكنها بصيرة رجل السياسة الحاذق الذى يقدر قوة العدو والصديق.

فبغداد تعجز عن الدفاع عن مصر أمام هجمات البيزنطيين على الولايات العباسية والفاطيون كقوة وليدة لا تزال على فطرة الحداثة العسكرية وأرض مصر مفتوحة أمام طموحاتهم.

ومصر لا تستطيع أن تدافع عن الدولة العباسية لتتولى الأخيرة الدفاع عن الأراضى المصرية. والمنطق والعقل والسياسة يرجحون كفة الفاطميين الذين لا يعانون الانقسام بل يعانون من فكرة الخوف من عدم التوسع والوصول إلى مصر لتكون درة العرش الفاطمى.

ويرحل كافور ليس فقط عن كرسى الحكم ولكنه يرحل هذه المرة عن الحياة كلها.

وأما مصر فهذا قدرها فهى تصمد أمام أعتى المحن وكأنها «رقصت من عدله طرباً» كما قال شاعره المفضل محمد عاصم.. وذهب المتنبى وكافور كل مع حكايته.. ولم يعد المصريون يرقصون طرباً من عدل كافور أو من أبيات المتنبى...!



نصف كوب ممتلى

الآن يذكر المصريون أنه منذ أكثر من أربعين عاما .. شهدت إلى الأراضي المصرية آخر موسم للفيضان.

وموسم الفيضان فى بر مصر كان هو البطل لكل الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فلم يكن نهر النيل قد روضه وجود السد العالى بعد. وكان المشهد التقليدى هو مشهد الاجتياح لمياه النهر لكل القرى والنجوع المصرية.

فلا يذكر التاريخ أن أحدا قد استطاع أن يقف فى وجه هذا النهر الذى ما كان يعلن عن بدء فيضانه حتى يجتاح كل شىء فى طريقه من أسوان إلى القاهرة.

فقد تتغير العصور والوجوه.. ويتغير الحاكم والمحكوم.. ولا تتغير مصر ولا نيلها.

واستمر هذا الحال بمر مصر حتى وجد النهر وبشكل فجائى من يروضه ومن يحدد حركته التى كانت ميزان القوة فى البلاد.

فالنيل يشبه إلى حد كبير الحياة المصرية التى كانت تشهد تتابع أيام اليسر والعسر.. وكانت أيضا تشهد أيام الفيضان والتحاريق.

فصحيح أن المصريين كانوا يخافون من ثورة القادم من جبال القمر ومن هضبة أثيوبيا التى تشبه الجنة.. إلا إنهم كانوا أيضا يخافون

من أيام التحاريق حتى لا يشهدوا الأراضى المصرية وهى شراقى حين تتكسر قطع الطين الفخارى وتربس وترفض أن تمنح الزرع والضرع فرصة الاستمرار.

والناس بين فيضان وتحاريق يحاولون أن يسيروا حياتهم. فإيقاع الحياة كان يفرض هذا التناوب بين القحط والنماء، وإن كانت فكرة السيطرة على النهر فيما يبدو كانت فى عقل الناس فى بر مصر منذ عهد الفراعنة. فالسيطرة على هذا النائر وتطويعه داخل قوالب الحياة كانت مهمة اشتغل بها الكثيرون.

ولهذا شيد القدماء السدود وأقاموا الترع والقنوات على طول الخط المصرى لنهر النيل. فلم يتيسر وقتها سوى هذا الحل المنطقى لمواجهة غضبة النهر. وإن ظلت أيام التحاريق الطويلة والثقيلة هى مشكلة بلا حل قاطع. والدليل على هذا هو عدد المجاعات وحالات الانهيار الاجتماعى والاقتصادى التى تسبب فيها استجداء الرزق وانحسار النهر من القنوات والترع .

وهو ما يجعل معجزة سيدنا يوسف عليه السلام لا تكمن فقط فى قدرته على تفسير رؤيا الملك ولكن فى قدرته على تسيير الحياة فى بر مصر أثناء السبع العجاف. ففتوى يوسف هى المحور الأساسى لشد الانتباه إلى دعوته للتوحيد.

وبرغم أن هذا المشهد الذى تعودته مصر لسنوات أصعب من أن تحصى قد اختفى تقريبا منذ حوالى الأربعين عاما، فهذه القصة تفيد بأنه كان من الممكن أن تنساه مصر قبل هذا بزمان طويل.

والقصة قد حدثت بكل تفاصيلها فى العصر الفاطمى وهو الزمن الذى حدثت فيه الكثير من التغيرات فى بر مصر، وبطلها هو العالم الفذ الحسن أبوعلى الحسن ابن الهيثم الذى يتوقف التاريخ أمامه ويتمهل حين يذكر فضل العلماء العرب والمسلمين على تاريخ العلوم فى العالم، والذى كان أحد الثلاثة الأعلام الأفاضل من علماء النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى وهم البيرونى وابن سينا وابن الهيثم. وهو الذى قال عنه جورج سارتون وهو أحد أعظم مؤرخى العلم إنه أعظم عالم فيزيقى مسلم، وأحد كبار العلماء الذين بحثوا فى البصريات فى جميع العصور.

وقد كان فوق ذلك فلكيا ورياضيا وطبيبا وله شروح على مؤلفات أرسطوطاليس وجالينوس والترجمة اللاتينية لكتابه «المنظير» كانت لها أثر عظيم على العلم فى الغرب خصوصا على روجير بيكون وكبلر وفيها يتجلى الرقى العظيم الذى وصلت إليه الطرق التجريبية.

ويذكر جوزيف هل فى مؤلفه عن الحضارة الإسلامية قائلا إن ابن الهيثم قد اتجه بأبحاثه إلى دراسة الحجرة المظلمة. وربما كان روجير بيكون أول من تمكن من الانتفاع بها، فلابن الهيثم فضل التفريق بين الظل وشبه الظل.

وقال عنه كاجورى فى تاريخ الفيزيكا: كان أول طبيب وصف العين وصفا مسهبا، وقد استمد معلوماته فى وصف العين من مؤلفات فى التشريح، وكان هو وبعض معاصريه من علماء العرب وبعض العلماء

المتأخرين منهم يعارضون رأى إقليدس والأفلاطونيين القائل بأن الإبصار يحدث عن أشعة تخرج من العين وكانوا يؤيدون رأى ديموقريطس وأرسطو القائل بأن السبب هو صدور أشعة من الجسم نفسه. (٦٠)
وقبل أن يأخذنا الحديث عن هذا العالم الذى ضاعت الكثير من أبحاثه وثمار فكره، فلا بد أولاً أن نتوقف عند فكرته لبناء سد كبير يقى مصر من ويلات اجتياح النهر لأرضها وزرعها فى زمن الفيضان.
فقصته فى مصر تبدأ مع هذه الفكرة التى جعلته يوطن قدميه فى مصر التى شهدت سنوات شبابه وكهولته وشيخوخته بل وانطفاء شمعة حياته.

فقد ولد ابن الهيثم فى زمن يعتبر من أغنى عصور الحضارة الإسلامية وجنى ثمار التفاعل بين الثقافات. وهو عصر ملئ بالتيارات وكما يحمد له هذا التبادل والانفتاح الحضارى الكبير فهو عصر يشينه كثرة التيارات الاجتماعية التى دخلت فى المجتمعات الإسلامية كالشعبوية والأمراض الاجتماعية الأخرى التى عانى منها المجتمع الذى دخلت فيه كل العناصر والشعوب والأفكار من كل الأبواب. فمن الطبيعى أن يدخل من الأبواب الصالح والطالح، خاصة إذا كانت هذه الأبواب مفتوحة على مصراعيها.

فابن الهيثم شهد عند أول نشأته عصراً صاحباً بجلبه الحركة العلمية المتدفقة، والحركة المذهبية فى الدين، وما سببته من ديناميكية التصادم بين الفرق المتنازعة، تصادماً قد تولد من رواسب

الحضارات الهامدة التي احتضنتها الحضارة الإسلامية. فكان أن تمت بينهما اتصالات فى البعدين المكاني والزمانى. (٦١)

وهكذا كانت البصرة أول موطن لقدم ابن الهيثم الذى احتواه هذا العصر الهادر الأمواج والذى يذكرنا بما رصده الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى فى رسالته عن الشاعر أبى العلاء المعرى الذى ولد وتربى وعاش فى ظروف مشابهة.. وهى الظروف التى جعلنا نتوقف طويلا أمام فكرة الحضارات التى تضع دعائمها فى أصعب الظروف اعتمادا على إنجازات مجموعة من البشر أبوا أن يتركوا الدنيا دون أن يضيفوا إليها.

فقد كان من المنطقى والطبيعى بل والمتاح فى عصر ابن الهيثم أن يقرأ العامة والدارسون علوم الفلسفة والمنطق والرياضيات والطب والفلك وخاصة بعد أن يسرت حركة الترجمة فى عصره والعصور التى سبقته حركة العلم والأدب. كما لم تكن هناك حدود تقف فى طريق من يريد أن يبدع سوى بعض النوازع الإنسانية السلبية المتمثلة فى البسود والكيد للآخرين هو ما عرفه ابن الهيثم منذ اختار أن يفرق نفسه فى بحر العلم الواسع.

فرغم أنه لم يكن يوما من طالبى المجد ولا المال إلا إنه لم يسلم فى عمله بالبصرة ككاتب حسابات بديوان البصرة حيث أراد زملاؤه أن يتخلصوا من مهارته العالية التى تسبب لهم مواجهات ثقيلة مع النفس. فالفاشل يعتقد فى قرارة نفسه أن من يريد التقدم والنجاح إنما يفعل هذا ليقفل من فرصه فى اعتلاء المناصب.

فلكى ينجح الفاشل لابد أن يختفى المجتهد. ولهذا ذهبوا إلى أمير
البصرة ليخبروه بأن ابن الهيثم هو أمير مهندس قصور لكى يزيحوه
عن طريقهم.

وهكذا اتضح لابن الهيثم أن الحياة فى البصرة لا تتسع لأمثاله،
فقرر أن يتجه إلى بغداد ليكسب عيشه من الكتب التى كان ينسخها
للوراقين. فقد كان كل ما يريد فى هذه الدنيا هو الإخلاص للعلم. ولهذا
لم تكن هناك متعة تذكر فى هذا الوطن الجديد سوى الذهاب إلى مكتبة
«بيت الحكمة» فى بغداد.

إلا إن شهرته سبقته ولم يكن بالنسبة لأهل بغداد أكثر من ضيف
ثقيل. فهو مؤلف كتاب «الهيئة» الذى كان يتحدث فيه عن الأفلاك
والكواكب والذى كان فى رأى أحد خطباء المساجد مدعاة للفسق.
فقد خيل للرجل أن ابن الهيثم بمحاولته كشف حجب العلم يكون
قد وقع فى الشرك الأكبر ودخل فى دائرة المحظورات الدينية بعد أن
تنبأ بالغيب.

ويختار الله تعالى لابن الهيثم أن يرحل عن العراق ليتجه إلى الشام
التى ينزل فى ضيافة أحد أمرائها المثقفين الذى اعتبر ابن الهيثم
ضيافته بمثابة استراحة المحارب.

فقد نزل ضيفا على بيته ومكتبته لا على ملكه الذى لم يرد أن
يشاركه فيه فرفض كل عروض الأمير المثقف بالإبقاء عليه مقابل مال
وسلطة وهما أكبر ما يطمح فيه أى إنسان فى هذه الدنيا.

وتبدو تجربة الشام ثرية فى حد ذاتها ، فمن خلالها يعرف ابن الهيثم الكثير عن بر مصر فقد حدثه الأمير عن مكتبة دار الحكمة بمصر ، وما فيها من قراء وفقهاء ، ونحاة ولغويين ، ومفسرين ومحدثين ومنجمين .

ويسمع عن مكتبة دار العلم الملحقة بها ، وفيها مائة وثمانون ألف كتاب غير مكررة العنوان فى علوم الدنيا : الفلسفة والمنطق والأخلاق ، والطبيعيات والرياضيات ، والفلك والطب ، وعرف أن قيم هذه المكتبة اسمه : أبو الحسن الشاشى .

وتمنى أن يذهب إلى مصر يوما ، ويعيش بالقاهرة الفاطمية ما بقى له من العمر ، يجلس إلى علمائها ويقرأ فى مكتباتها . ومن يرى ؟ قد يلحقه الخليفة الحاكم بأمر الله عضوا بمجلس العلماء بدار العلم فى قاعاتها الخضراء .

وأيقن أبو على أنه سيقضى عمره كله آمنا على نفسه وعلمه فى بلاد يحكمها الفاطميون . (٦٢)

مرة أخرى يفكر ابن الهيثم فى الرحيل وكأن التنقل بين البلاد فرض عليه كما كان الحال بالنسبة للإمام الشافعى الذى مازال مسجده يحمل على قبته صورة سفينة كرمز لترحال هذا الإمام الكبير الذى جاب العالم الإسلامى منذ ميلاده فى غزة وحتى رحيله عن الحياة ودفنه فى أرض مصر المباركة . فمصر وبكل الحسابات كانت تملك مساحة ثابتة فى عقل الكثير من رجال الفكر والعلم والرحالة فى كل الأزمان .

ولهذا لم يكن حديث ابن الهيثم مع الأمير حول مصر أكثر من تحسس لأحوال الحياة بها ، خاصة أن الفاطميين فى هذا الوقت كانوا من محبى العلم الذى كان يعلو صوته على صوت الصراعات والمؤامرات بين فرق الجيش الفاطمى.

أما الحاكم بأمر الله فقد كان قصة فى حد ذاتها. فلا أحد يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث من جانبه ولهذا كان وجود ابن الهيثم فى مثل هذه الظروف أشبه بالمجازفة. إلا إنها لم تكن أيضا معادلة مستحيلة عند ابن الهيثم الذى جاء إلى مصر حاملا فكرا جديدا من أجل مشكلة قديمة وصعبة فى الوقت نفسه.

فقد أراد ابن الهيثم أن يدخل مصر من باب العلماء. فلم يركن إلى هذا الكم من الكتب العلمية والاقتراحات والإضاءات التى قدمها فى العراق والشام والتى كان أبسطها تلخيص ثلاثين كتابا للطبيب جالينوس.

ولم يكن ابن الهيثم من الذين يعيشون لأنفسهم فقط، بل كان عند اختياره للعلم طريقا لا يأنف أن يكون تلميذا للآخرين ممن سبقوه أو عاصروه، ولهذا رأى فى تلخيص كتب من الفكر اليونانى مهمة كبيرة لا يثنيه عنها أحد، ويقال إن أمر ابن الهيثم قد بلغ الحاكم بأمر الله الذى وجد فيه غايته المنشودة، ويروى القفطى أنه بلغه قول ابن الهيثم الذى يصف فيه مهمته فى ترويض النهر:

لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الإقليم المصرى.

ويروى القفطى أن الحاكم أرسل إليه أموالا وهدايا رغبة فى الحضور إلى مصر، ولعل الحاكم خرج لاستقباله والتقى به خارج القاهرة، وأكرمه وأمر بإكرام مثواه، ثم استمهله أياما وطالبه بما قال فى أمر النيل، ثم يقول إن ابن الهيثم سار ومعه جماعة من الصناع المحترفين لأعمال البناء بأيديهم وتتبع مجرى النيل وكأنه فى بعثة هندسية بالمعنى الحديث حتى وصل إلى أسوان.

وتجاوزها إلى موضع يقول القفطى إنه يعرف بالجنادل وعاین هذا المكان من جانبيه، ولكنه لم يجد الأمر متفقا وفكرته الهندسية التى خطرت له، ففكر وقدر فلم يجد مندوحة من العودة إلى القاهرة وهو فى أشد حالات الخجل والانخدال واعتذر إلى الحاكم. (٦٣)

وبهذا الأسلوب ظن ابن الهيثم أنه استطاع أن يتجاوز هذه العثرة العلمية وأن فكرته عن السد النيلي لم تكن أكثر من طموح لم يستطع تحقيقه.

فالمهم إنه حاول ولكن إمكانيات عصره لم تسعفه. وهو لا يريد أن يخدع نفسه ولا الآخرين وكان بمقدوره أن يستنزف الكثير من الأموال المصرية وأن يعتمد على عامل الزمن الذى يمكن أن يحل كل المشكلات.

فربما ذهب الحاكم بأمر الله وجاء غيره ونسى موضوع السد. وربما نسى أوتناسى الحاكم بأمر الله هذا الشأن وتركه برمته.

وربما توصل ابن الهيثم إلى حل فى يوم من الأيام ولهذا قد يرى البعض أن بعض السياسة يمكن أن تصلح الأمر وأن التسويف علاج للكثير من الأزمات.

إلا إن ابن الهيثم اختار أن يواجه حقيقة فشله ووضع حديثه مع ست الملك أخت الحاكم بأمر الله نصب عينيه فقد رن سؤالها في أذنيه.. فإذا كان هذا السد ضرورة وحقيقة ممكنة لماذا لم ينفذه الفراعنة الذين كانوا في الأصل قد بلغوا قمة المعمار في كل عصور البشرية.. فهل يفشل من بنى الهرم في بناء سد يقى البلاد من مصائب الفيضان وويلات التحاريق؟

فقد روعته وأرقته الآثار المصرية الراضة على شاطئ النيل والتي لم ير لضخامتها وإتقانها مثيلا. فبال تأكيد فهم هؤلاء المهندسون المهرة كل صغيرة وكبيرة على أرض مصر تصرفوا معها بشكل لا يعاندون فيه الطبيعة. فهذه خلاصة تجربته التي أدركها عندما شاهد آثار الأقصر والبر الغربى وجزيرة فيلة ومنطقة الجنادل.

وبالتأكيد أيضا أن فكرته يمكن أن تتحقق، ولكن أين هذه المعدات الضخمة التي يمكن أن تحقق حلمه الذى لم يبرح الأوراق؟!

فى النهاية أعلن ابن الهيثم عن عدم قدرته على تنفيذ حلمه من منطق عالم لا يريد أن يجازف بما قدم فى سنوات عمره السابقة ولا أن يتحمل تبعات فشل ما أراد فى حين كان موقف الحاكم بأمر الله مختلفا. فقد أراد كحاكم أن يجنب بلاده شر الفيضان وآلام التحاريق وأن ينظر إلى مسألة الزراعة والنماء نظرة أخرى لا تقوم على حسابات مفاجآت النيل. ولهذا لم يقبل اعتذار ابن الهيثم واسترد منه أمواله التى أغدقها عليه لتحفيزه على تحقيق مشروعه.

كما أغلق أبواب الجدل حول هذا المشروع وحول اتجاه الموارد المالية لبلاده إلى أشياء أخرى يمكن أن تكون أكثر إفادة لمصر. إلا إنه أبدا لم يقبل اعتذار ابن الهيثم الذى خذله أمام العلماء والمقربين الذين نصحوه من قبل بعدم أخذ حديث ابن الهيثم مأخذ الجد.

واستمرت هذه الجفوة بين الرجلين إلى أن تدخلت ست الملك أخت الخليفة بنفسها ليقرر الحاكم بعدها بإرسال ابن الهيثم ليعمل فى وظيفة متواضعة فى الديوان.

إلا إن المشكلة كانت فى ابن الهيثم نفسه الذى لم يقبل بوظيفة متواضعة بديلا عن الدراسة والإخلاص للعلم. فعندما أراد أن يتفرغ لأبحاثه وجد كل الأبواب مغلقة فلم يجد سبيلا للخروج من هذا المازق سوى ادعائه الجنون، وأراد أن يعلنها صريحة فجاء أمام الناس بحركات غريبة وأصبح يضحك ويبكى. وقد لفت الأنظار إليه بتعاقب حالات السرور والمرح مع البكاء والحزن، وأصبح معروفا لدى الناس أنه قد أصابه مس من الجنون فرأى الخليفة أن يعزله وحده وأن يداوم عليه حراسة مشددة ليل نهار، وبهذه الطريقة المبتكرة استطاع ابن الهيثم أن يجد نفسه أخيرا حرا طليقا يملك وقته وقد منحه هذا الادعاء بالجنون فرصا ابتكارية أخرى.

فهؤلاء الحراس الذين يراقبونه قد أحدثوا خرقا فى الغرفة ليروا تحركاته وهو ما منحه فرصة كبيرة صنعتها الصدفة. فاكشف فكرة الغرفة المظلمة التى صارت فيما بعد أساسا لفكرة صندوق التصوير

الفوتوغرافى. ورأى الناس أبا على واقفا فى صحن الأزهر وعلى وجهه ضحكة عريضة صامتة ورأوه يسير بين أروقة الجامع الأزهر عاقدا يديه وراء ظهره. ولم يعرفوا أنه يفكر فى ظواهر انعكاس الأشعة وانكسارها وانتشارها فى الأوساط الشفيفة والغليظة.

ورآه الحارسان يوما فوق سطح بيته فى وقت الظهيرة وقد غرس عودا رفيعا فى لوح خشبى ومد يده بخيط من أعلى العمود إلى آخر ظل العصا وهو يكتب ويرسم فى ورقة. فجزم الحارسان لجهلهما باستحكام جنونه. (٦٤)

ويختفى الحاكم بأمر الله بين ليلة وضحاها ولا يعثر له على أثر. وإن كان اختفاؤه أكد فيما بعد حقيقة موته أو تحديدا قتله، ويندهش الناس فى بر مصر مما حدث وتوجه أصابع الاتهام للكثير من الشخصيات ومنها ست الملك أخت الحاكم بأمر الله التى جاءت بأخيها للحكم ولكنه انقلب عليها. إلا إن لعبة السلطان ظلت مغلقة محكمة فلم يستطع أحد أن يجزم من بالتحديد قاتل الحاكم ولماذا اختفى بهذا الشكل ومن وراء هذا الحادث المدبر القتل أو الاختفاء.. أسئلة كثيرة احتفظ التاريخ لنفسه بها فى خزانته الخاصة بعد أن فشل الناس فى إيجاد إجابات سريعة تشفى الصدور.

ولكن المهم بالنسبة لابن الهيثم أن مثل هذا الحادث يعنى انقلابا شديدا فى الأمور وأنه قد خرج من دائرة المظلومين ليعود مرة أخرى إلى طائفة المشغولين بالغد.

ويرفض ابن الهيثم أن يدخل فى لعبة السلطان مرة أخرى فهو قد
قدم إلى بر مصر عندما اعتقد فى قرارة نفسه أنه باستطاعته أن يبني سدا
يحمى مصر من أهوال وتعاقب أيام الفيضان والتحاريق.
واستمر فى مصر ورغب بها بعد أن وجد أنها المكان الآمن الذى
يكفل له الاستمرار فى أبحاثه وفتوحاته العلمية.

ولهذا لم يقبل وبأى حال أن يعود إلى البلاط الملكى كعضو بمجلس
العلماء بدار العلم وأن يجرى له راتب شهري كما أرادت ست الملك
التي عادت إلى مسرح الأحداث كوصية على ابن أخيها الحاكم الصغير.
واستمر ابن الهيثم فى نسخه الكتب للوراقين بالأزهر وتعليم من
تيسر له من الصغار وطالبي العلم الذى رفض أن يتقاضى عن تعليمهم
الأموال حتى وصل من العمر إلى أربعة وسبعين عاما ووصلت كتبه إلى
المائتى كتاب فى مختلف التخصصات العلمية.

وقتها كان على الفارس أن يترك كل شيء لمن يأتى من بعده وأن يسلم
الروح إلى بارئها فى ليلة من ليالى القاهرة التى قد اعتادها وأحبها.
فليلة من ليالى بر مصر تعنى عمرا بأكمله.. فقد أعطته مصر مثلما
أخذت منه.

وليكن حال ابن الهيثم هو حال الكثيرين من أهل البلاد والذين
بحثوا عن مرقاً أو لعله استراحة للمحارب فعزت عليهم بلاد الدنيا
وأحببتهم مصر واعتبرتهم من أبنائها.

فالمصريون ليسوا هم من ولدوا على أرض مصر وعاشوا حياتهم بها
وانتمت عائلتهم إليها في حدود الجيلين أو الثلاثة أجيال، ولكن
المصريين حقا هم من أحبوا البلاد وعاشوا على أرضها ووجدوا فيها
السند وقت العوز.

فحقيقة لم يحصل ابن الهيثم على حقه من التكريم في عالمنا
الإسلامي، إلا إن الرجل لو عاد إلى الحياة مرة أخرى فلن يضيره أو
تضيف إليه كلمات التكريم، فقد اختار العلم طريقا وكان حقا على أهل
بلده المصريين أن يحملوا أفكاره إلى الأجيال التالية وهو أمر أعرف إننا
نقصر دائما في أدائه.... فمتى يظن المصريون إلى عزهم؟!



مراجع

- (١) أكمل الدين إحسان أوغلى، الأتراك فى مصر وتراثهم الثقافى. (أسطنبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية. ٢٠٠٦م).
- (٢) المصدر نفسه.
- (٣) جى فارجيت، محمد على مؤسس مصر الحديثة.. (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة. المشروع القومى للترجمة ٤٩٢ - ٢٠٠٣م).
- (٤) محمد رفعت، الأرمن فى مصر. (القاهرة: دار نوبار للطباعة ١٩٩٥م).
- (٥) لطيفة سالم، الحكم المصرى فى الشام (١٨٣١م - ١٨٤١م). (القاهرة: مذبولى. ١٩٩٠م).
- (٦) حسين مجيب المصرى، إيران ومصر عبر التاريخ. (القاهرة: الأنجلو مصرية. ١٩٧٢م).
- (٧) محمد السعيد عبد المؤمن محمد السعيد إدريس. مختارات إيرانية. صفحات منسية فى العلاقات الثقافية بين مصر وإيران. (القاهرة: الأهرام. ابريل ٢٠٠٤م).
- (٨) المصدر نفسه.
- (٩) باحثون من مكتبة الإسكندرية، الأسرة السليمية: ذاكرة مصر المعاصرة (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية - ٢٠١٠م).
- (١٠) د/ عبد الرؤوف يوسف، سيدة الملك، القاهرة: تاريخها وفنونها وآثارها (القاهرة: مؤسسة الأهرام - ١٩٧٠م).

- (١١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب.. (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٨م).
- (١٢) المصدر نفسه.
- (١٣) عبد الرحمن زكى، مدينة القاهرة فى ألف عام، القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى.. (الدار المصرية للتأليف والترجمة. ١٩٦٦م).
- (١٤) د/ ثروت عكاشة، القيم الجمالية للعمارة الإسلامية.. (القاهرة: دار المعارف - ١٩٨١م).
- (١٥) د/ سعيد عاشور، موسوعة تاريخ مصر عبر العصور.. تاريخ وآثار مصر الإسلامية. (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب. ١٩٩٣م).
- (١٦) محمد مصطفى نجيب، العمارة العثمانية، القاهرة: تاريخها وفنونها وآثارها (القاهرة: مؤسسة الأهرام - ١٩٧٠م).
- (١٧) د/ سعيد عاشور، موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ وآثار مصر الإسلامية.
- (١٨) د/ ثروت عكاشة، القيم الجمالية للعمارة الإسلامية.
- (١٩) عاصم رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة. (القاهرة: مذبولى - ٢٠٠٣م).
- (٢٠) سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون.. (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٩٧٢م).
- (٢١) أحمد بهجت، بحار الحب عند الصوفية. (القاهرة: دار الشروق - ٢٠٠٨م).

- (٢٢) عاصم رزق، خانقاوات الصوفية فى مصر (القاهرة: مدبولى - ١٩٩٧م).
- (٢٣) المصدر نفسه. (٢٤) المصدر نفسه.
- (٢٥) كريستوفر هيروльд، يونابرت فى مصر. ترجمة: فؤاد أندراوس (القاهرة: دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - ١٩٦٢م).
- (٢٦) د/ ثروت عكاشة، القيم الجمالية للعمارة الإسلامية.
- (٢٧) د/ عاصم رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية.
- (٢٨) محمد كمال السيد، القاهرة أسماء ومسميات.. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦م).
- (٢٩) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها. صفحات من تاريخ مصر. (القاهرة: مكتبة مدبولى - ١٩٩١م).
- (٣٠) د/ سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون. (٣١) المصدر نفسه.
- (٣٢) د/ عاصم رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية.
- (٣٣) عبد الرحمن الشرقاوى، العز بن عبد السلام سلطان العلماء، شخصيات إسلامية. أئمة الفقه التسعة.. بيروت: دار اقرأ - ١٩٨٣م).
- (٣٤) المصدر نفسه. (٣٥) المصدر نفسه.
- (٣٦) محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض والحب الإلهى.. (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٤٥م).
- (٣٧) مولانا جلال الدين الرومى، مثنوى. ترجمة: د/ إبراهيم الدسوقى شتا (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة - ١٩٩٦م).
- (٣٨) ليلى الدورى، موقع التصوف الإسلامى. الانترنت.

- (٣٩) السيد أحمد خليل، الليث بن سعد فقيه مصر.
- (٤٠) محمد زينهم محمد، الليث بن سعد سيره وفضائله.
- (القاهرة: دار المعارف - ٢٠٠٠م).
- (٤١) المصدر نفسه. (٤٢) المصدر نفسه.
- (٤٣) د/ عاصم رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية.
- (٤٤) أسامة أبو خليل، شرح البردة المباركة للإمام البوصيري.
- (القاهرة: مكتبة نهضة مصر - ١٩٨٠م).
- (٤٥) تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقرئى، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية. (القاهرة: الهيئة العام لقصور الثقافة - ١٩٩٩م).
- (٤٦) على باش مبارك، الخطط التوفيقية.. القاهرة: مطبعة بولاق.
- هيئة الكتاب - ١٩٨٦م).
- (٤٧) محمد أبو العمايم، آثار القاهرة الإسلامية فى العصر العثمانى، المجلد الأول: المساجد والمدارس والزوايا.. (اسطنبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية. ٢٠٠٣م).
- (٤٨) الحسين اليعقوبى، بنو خلدون من أشبيلية إلى تونس، ابن خلدون: البحر الأبيض المتوسط فى القرن الثامن الهجرى. الرابع عشر الميلادى.. (أسبانيا: مؤسسة التراث الأندلسى - ٢٠٠٦م).
- (٤٩) المصدر نفسه.
- (٥٠) د/ على عبد الواحد وافى، عبد الرحمن بن خلدون: حياته وآثاره ومظاهر عبقريته.. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومى - ١٩٦٠م).

- (٥١) المصدر نفسه.
- (٥٢) أحمد مختار العابدی، المالیک، ابن خلدون: البحر الأبيض المتوسط فی القرن الثامن الهجری.
- (٥٣) المصدر نفسه.
- (٥٤) د/ قاسم عبد قاسم، عصر سلاطين الممالیک. التاريخ السياسی والاجتماعی.. (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة - ١٩٩٩م).
- (٥٥) المصدر نفسه.
- (٥٦) مصطفى نبیل، سیر ذاتیة عربية.. (القاهرة: دار الهلال - ١٩٧٢م).
- (٥٧) المصدر نفسه.
- (٥٨) المصدر نفسه.
- (٥٩) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغربردی، النجوم الزاهرة فی ملوک مصر والقاهرة.. (القاهرة: دار الكتب - ١٩٤٢م). من کتاب د/ حسن إبراهيم حسن تاریخ الدولة الفاطمية.
- (٦٠) أحمد سعيد الدمرداش. الحسن بن الهيثم، أعلام العرب.. (القاهرة: دار الكاتب العربی للطباعة والنشر - ١٩٦٩م).
- (٦١) المصدر نفسه.
- (٦٢) سليمان فياض، ابن الهيثم، عالم البصريات، علماء العرب.. (القاهرة: مؤسسة الأهرام. مركز الترجمة والنشر - ١٩٨٥م).
- (٦٣) المصدر نفسه. (٦٤) المصدر نفسه.

فهرس الكتاب

١٠	أول السطر
١٢	أول الكلام
١٤	أبناء قولة يحكمون
١٨	من الصاغة وخان الخليلى
٢١	أول وحدة عربية
٢٣	أبناء سلمان الفارسى فى مصر
الفصل الاول: أيام المسك المصرى	
٣٢	بأمر الملكة صفية
٣٨	اعط الصباح فرصة
٤٣	الكنز
٥٠	ست الملك وقلاوون
الفصل الثانى: فى سبيل الخير:	
٦٠	عطشان يا صبايا
٦٩	حكاية وراء مدرسة
٨٠	الخناقوات بيت الدعاء فى الزمن الجميل
الفصل الثالث: بيوت وحواديت:	
٩١	بيت السنارى وحكايته الغريبة

٩٧	بيت القصص والمفارات
١٠٩	بيت الست وسيلة يتجمل
١١٤	مقياس للوفاء
الفصل الرابع: المقطم جبل الأولياء:	
١٢١	غراس الجنة
١٢٤	في رحاب الصالحين
١٢٧	الأيام المصرية
١٣٧	في حضرة مولانا ابن الفارض
١٤٧	الليث إمام أهل مصر
١٦٠	بئر يوسف
١٦٨	خلوة جاهين
الباب الخامس: طرقات على باب مصر:	
١٧٤	الأيام المصرية لابن خلدون
١٩٣	زوابع أمشير
٢٠٤	نصف كوب ممتلى
٢١٨	المراجع



مؤسسة
دار المعارف
قطاع التسويق وتنظيم المعارض

منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
القاهرة	الإدارة والمكتبات	٩ شارع كامل صدقي بالعجالة	٢٥٩٠٥٩٤٨	٢٥٩٠١٧٦٦
	مكتبة ثروت	٢٧ شارع عبد الحالق ثروت	٢٣٩٣٦١٢٣	٢٣٩٣٦١٢٣
	مكتبة السيدة زينب	ميدان السيدة زينب ناحية شارع قنرى	٢٣٩١٣٨١٣	
	مكتبة شبرا	١٠٥ شارع شبرا أمام مدرسة التوفيقية	٢٢٠٢٣٨٦٦	
	مكتبة ماسبيرو	خلف دار المعارف ومجلة أكتوبر	٢٥٧٧٠٧٧	
الإسكندرية	مكتبة سعد زغلول	٤٢ شارع سعد زغلول	٠٣/٤٨٠٧٦٤٤ ٠٣/٤٨٠١٣٤٥	٠٣/٤٨٠٧٧٣٨
	مكتبة التحرير	٢ ميدان التحرير بالنخبة	٠٣/ ٤٨٧٩٩٥٣	
	مكتبة محرم بك	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميرؤو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
	جهاز المعارف بالإسكندرية	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميرؤو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
	المكتبة	خلف مسرح البلدية شارع اللقنطرة	٠٤٠/٣٣٣٢٣٥١	
النصيرة	المكتبة	شارع الجمهورية بجوار إدارة جامعة النصيرة	٠٥٠/ ٢٣٩٩٢٨٧	
الإسماعيلية	المكتبة	بجوار نادي الشجرة - شارع شهبين الكوم	٠٦٤/ ٣٣٤٦١٩٢	
الزقازيق	مكتبة المنتزه	ميدان المنتزه - بالزقازيق	٠٥٥/ ٢٣٠٥٠٢٢	
	مكتبة هرايس	ميدان أحمد هرايس سابقا	٠٥٥/ ٢٣٦٥٠٢٢	

منطقة	الفرع	المنوان	تليفون	فاكس
المريش	المكتبة	شارع الجيش أمام قسم المريش	٠٦٨/ ٣٣٦١٨٩٠	
السويس	المكتبة	سوق فيصل السباحى - حى فيصل	٠٦٢/ ٣٦٧٢٩٩٦	
المنيا	أسهوط	شارع جلال الدين السهوطى	٠٨٨/ ٢٣٣٤٥٠٤	
	منطقة أسهوط الجديدة	عمارة الأوقاف رقم ٢ ش سعد زغلول	٠٨٨/ ٢٣٣٠٠٠٨	
سوهاج	الإدارة العامة والحسابات	خلف الساحة الشمبية بجوار قصر الثقافة	٠٩٣/ ٢٣٢٤٣٤٧	
قنا	الإدارة والمكتبة	شارع الجمدل	٠٩٦/ ٥٣٢٣٢٣٠	
أسوان	الإدارة والمكتبة	السوق السباحى	٠٩٧/ ٢٣٠٢٨٣١	

اشترك فى سلسلة اقرا تضمن وصولها إليك بانتظام
الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٩٦ جنيهاً.
 - الدول العربية واتحاد البريد العربى ١٢٠ دولارا أمريكيا.
 - الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.
- تسدد قيمة الاشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات.
- بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

نجیب محفوظ حیاتہ و ادبہ
مأمون غریب

یصدر
قریبا